الحيـــوان
ودوره في نصرةِ الحقِ في القرآن الكريم
دراسة موضوعية

أ .م .د. سَعْدُون جُمُعَة حَمَّادِي الحَلبوُسِي

الملخص

يدور موضوع هذا البحث حول دراسة الآيات القرآنية التي تحدثت عن مواقف الحيوانات تجاه نصرة الحق ، وتعرفنا على الجوانب المستنبطة من هذه المواقف ، وتم تقسيم البحث على ثلاثة مباحث سبقتها مقدمة وتمهيد ، وأعقبتها خاتمة ، حيث تكلمت في التمهيد عن الموضوع تعريفاً وبياناً ، وتحدثت في المبحث الأول عن الدلالة على إحياء الموتى بقصة البقرة ، وحمار عزير ، وطيور ابراهيم عليه السلام ، وكلب أصحاب الكهف ، فكان موقف الحيوان دليلاً وشاهداً وناصراً لهذا الحق المبين ، وفي المبحث الثاني تناولت المعجزات المؤيدة للحق الذي جاء به الأنبياء كناقة صالح ، وثعبان موسى ، وهدهد ونملة سليمان ، ومعجزة الدّابة في آخر الزمان ، أما المبحث الثالث فتحدثت فيه عن استجابة الحيوانات لأمر الله مستشهداً بحوت يونس عليه السلام ، وبالغراب الذي علم ابن آدم ، وبالفيل والطير الأبابيل ، وبالجراد والقمّل والضفادع الذين كانوا جنداً لله تعالى منفذين لأمره لنصرة الحق وما يعلم جنود ربك الا هو .

وختمت البحث بنتائج تدعو الى التدبر والتفكر والاقتداء ففي قصص القرآن عبرة لأولي الألباب .

SUMMARY

The theme of this research on the study of the Quranic verses that talked about the animals' attitudes toward the support of the right, and we got on distilled from these positions aspects, were divided Find the three sections preceded by an introduction and boot, and followed by a finale, where he spoke in the boot on the subject definition and statement and spoke in Section first report on the significance of the revival of the dead story of the cow and donkey Uzair, and the birds of Ibrahim, peace be upon him, and the dog cave, was the animal's position evidence and witnesses and helpers for the right set forth, and in the second section dealt with miracles pro-choice, which was brought by the prophets Knaqh favor, and the snake of Moses, and the rock and the ant Solomon, the miracle of an animal in the last decade, while the third section talked it about the animals in response to the command of Allah, citing searches Younis peace be upon him, and Balgrab who taught the son of Adam, the elephant and bird Alobabil, and locusts, lice, frogs, who were recruited to God executors of his command to support the right and teaches soldiers of your Lord except him.

In conclusion, the results of the research calls for contemplation and reflection and to follow in the stories of the Koran lesson for men of understanding .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، إمام الأنبياء والمرسلين ، وسيد الأولين والآخرين ، وعلى آله وصحابته والتابعين ، ومن سار على نهجهم الى يوم الدين . وبعد :

فإن القرآن الكريم هو كلام الله الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد ، وهو معجزة الله في سماواته وأرضه ، وهو كتاب هداية ، ومنهج للحياة بكل اشكالها وجوانبها ، لما جاء به من قضايا وما عالجه من مشكلات وما احتواه من حوارات وقصص واخبار الغيب .

ومن هنا كثرت حوله الدراسات وتشعبت عبر العصور فتخيرت باقة نضرة التمس فيها شيئا من دلالاته وهداياته فأنخت رحلي عند موضوع الدفاع عن الحق ونصرته بشتى الوسائل فوجدت أنَّ للحيوان نصيب من هذا الواجب من خلال حديث القرآن الكريم عن كثير من المواقف التي كان للحيوان دور بارز يقف أمامه الانسان متعظاً ومعتبراً بتفوق ذلك الحيوان عليه وإن كان توجيهاً ربانياً .

وهذه المواقف لا يفقهها الا العالمون المتفكرون في القرآن والباحثون في آياته ، حيث أن لكل حيوان قصةً وموقفاً فيه من العبر والمعاني والدروس لمن يلقي السمع وهو شهيد .

فكان اختيار هذا البحث الموسوم بـ (الحيوان ودوره في نصرة الحق في القرآن الكريم) مبيناً لهذه المعاني السامية .

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه على مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة ، اما التمهيد : فذكرت فيه تعريفاً وبياناً بالموضوع وقسمته على قسمين :

الأول : التعريف بالحيوان والنصرة والحق .

الثاني : بيان اهتمام الاسلام بالحيوان .

اما المباحث فكانت على النحو الآتي :

المبحث الأول : الدلالة على احياء الموتى ، ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : قصة بقرة بني اسرائيل .

المطلب الثاني : احياء حمار عزيز .

المطلب الثالث : طيور سيدنا ابراهيم – عليه السلام – .

المطلب الرابع : كلب اصحاب الكهف .

المبحث الثاني : إظهار المعجزات المؤيدة للأنبياء ، ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : ناقة سيدنا صالح – عليه السلام – .

المطلب الثاني : ثعبان سيدنا موسى – عليه السلام – .

المطلب الثالث : الهدهد والنملة مع سيدنا سليمان – عليه السلام – .

المطلب الرابع : الدابّة .

المبحث الثالث : الاستجابة للأمر الله تعالى ، ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : حوت سيدنا يونس – عليه السلام – .

المطلب الثاني : الغراب .

المطلب الثالث : الفيل والطير الابابيل .

المطلب الرابع : الجراد والقمل والضفادع .

ثم الخاتمة ونتائج البحث .

أسال الله العلي العظيم أن يعينني على اتمامه على أحسن وجه ، أنه على كل شيء قدير ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

التمهيد
تعريـــف وبيـــان

أولاً : تعريف بالحيوان والنصرة والحق .

أ- تعريف الحيوان لغة واصطلاحاً :

الحيوان لغةً : الحَيَوَان محركة بثلاث فتحات متوالية ، جنس الْحَيّ وَأَصله حييان، فقلبت الْيَاء التي هي لَام واواً ، استكراها لتوالي الياءين ليختلف الحرفان[١]، وهو اسم يقع على كل ذي رُوحٍ نَاطِقًا أَو غَيْرَ نَاطِقٍ ، مَأْخُوذٌ من الحياة ، يَسْتَوِي فيه الوَاحِدُ وَالْجَمْعُ ؛ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ فِي الْأَصْلِ ، وسمى الله عز وجل الآخرة حيواناً فقال : ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [٢] وهي مبالغة في وصف الحياة التي لَا يَعْقُبُهَا مَوْتٌ. [٣]

الحيـوان اصـطلاحاً : لا يختـلف تعريف الحيـوان فـي الاصطـلاح عن معنـاه اللغـوي فقـد عـرّفه الجرجـاني – رحمـه الله – : " بأنه الجسم النامي الحساس المتحرك بالإرادة " . [٤]

وقال الزمخشري – رحمه الله – : " وسمي ما فيه حياة حيوانا، وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة، وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب " . [٥]

ب- تعريف النصرة لغة واصطلاحاً :

النصرة لغـةً : النُّونُ وَالصَّادُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على إِتْيَانِ خَيْرٍ وَإِيتَائِهِ ، وَنَصَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ: آتَاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدُوِّهِمْ ،[٦] والنصر هو عوْنُ الْمَظْلُوم ، والنُّصْرَةُ: حسنُ المعونة . [٧]

---

(١) ينظر : المحكم والمحيط الأعظم ، لابن سيده المرسي : (٣/ ٣٩٧) ، وتاج العروس ، لمرتضى الزَّبيدي : (٣٧/ ٥١٠) .
(٢) سورة العنكبوت : من الآية (٦٤) .
(٣) ينظر: المصباح المنير ، للفيومي : (١/ ١٦٠) .
(٤) التعريفات ، للجرجاني : (ص: ٩٤) .
(٥) الكشاف، للزمخشري : (٣/ ٤٦٣) .
(٦) معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس : (٥/ ٤٣٥) .
(٧) تهذيب اللغة ، للأزهري الهروي : (١٢/ ١١٣) .

النصرة اصطلاحاً :ذكر أهل التفسير في معنى النصرة نفس المعاني اللغوية ، فالنصرة اسم من النصر ، وهي المعونة من دفع البلية [١] وقال أبو هلال العسكري – رحمه الله – : " أن النصرة لا تكون الا على المنازع المغالب والخصم المناوئ المشاغب " . [٢]

ج- تعريف الحق لغة واصطلاحاً :

الحق لغةً : الحَقُّ: خلاف الباطل ، والحَقُّ: واحد الحُقوقِ ، وحاقَّهُ، أي خاصَمَه وادَّعى كلٌّ واحدٍ منهما الحَقَّ، فإذا غلبه قيل: حقه ، وأحققت الشئ، أي أوجبته ، وتَحَقَّقَ عنده الخبر، أي : صحَّ ، وكلام محقق، أي : رصينٌ ، والحاقة وهي القيامة، وسميت بذلك ؛ لأنَّ فيها حَواقّ الأمور. [٣]

الحق اصطلاحاً : الحق : هُوَ الله تَعَالَى ، وَالْحكم المطابق للْوَاقِع ، يُطلق على الْأَقْوَال ، والعقائد ، والأديان ، والمذاهب ، بِاعْتِبَار اشتمالها على ذَلِك . [٤]

ثانياً : بيان اهتمام الاسلام بالحيوان .

يعد الحيوان آية من آيات الله التي تشير الى وجود الله سبحانه وتعالى ، وتدل على وحدانيته ، ولذلك اهتم القرآن الكريم من خلال آياته بالإكثار من ذكره ، ودعى الى النظر في بديع خلقه ، والتفكر والتدبر في سلوكه ، وأخذ العبر والعظات من قصصه ، التي حوت دروساً تربوية نافعة وعبراً مثمرة ، يجتنى من ثمرها الخير ، ويستفيد منها الناس وينتفع بها أولو الالباب .كما أوضح القرآن الكريم مكانة الحيوان من خلال تسمية عدد من الحيوانات بأسماء عدد من سوره الكريمة ، مثل سورة البقرة ، وهي أطول سورة في القرآن الكريم ، وسورة الانعام ، وسورة النحل ، وسورة النمل، وسورة العنكبوت ، وسورة العاديات ، وسورة الفيل .

---

(١) تفسير ابن فورك : (١/ ٢٤٢) .
(٢) معجم الفروق اللغوية ، لأبي هلال العسكري : (ص: ٥٤٠) .
(٣) الصحاح للجوهري : (٤/ ١٤٦٠) .
(٤) الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة ، لزكريا الأنصاري : (ص: ٧٥) .

وربط القرآن الكريم ذكر الحيوان بالإنسان عامة ، وبالكثير من الأنبياء والصالحين خاصة ، وأورده في العديد من الآيات القرآنية ليضرب به المثل ، مثل قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾. (١)

وقد وهب الله سبحانه وتعالى الحيوانات قدرة رؤية وسماع تفوق رؤية وسماع الانسان ، وهذا من تقديره وحكمته ، فبعض الحيوانات يرى الملائكة ، وبعضها يرى الشياطين ، بل إن الحيوانات تسمع أصوات المعذبين في قبورهم ، وهذا ما حدّث به نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم– الذي لا ينطق عن الهوى ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – ، أَنَّ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم– قَالَ : ((إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَانًا)) . (٢)وعَنْ عَبْدِ اللهِ – رضي الله عنه – ، عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم– قَالَ : ((إِنَّ الْمَوْتَى لَيُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ ، حَتَّى إِنَّ الْبَهَائِمَ لَتَسْمَعُ أَصْوَاتَهُمْ)) . (٣) بل إن الله تعالى أعطى هذه الحيوانات سعة إدراك ما لا يدركه الإنس والجان فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – ، عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم– قَالَ : ((وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ مُسِيخَةٌ (٤) يَوْمَ الْجُمُعَةِ، مِنْ حِينَ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ، إِلَّا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ)) .(٥) فالناظر في بديع خلقها وعظيم صنعها ، يدرك عجائب مثيرة والهامات عجيبة ، مما يدعو الى الايمان بخالقها ومبدعها الذي أحسن كل شيء خلقه ، وهي دعوة للتأمل في آيات الله ومعرفة عظمة الخالق جلّ في علاه

ففِي كلِّ شيءٍ لَهُ آية تَدُلّ على أنّهُ الواحِد

---

(١) سورة العنكبوت : الآية (٤١) .

(٢) أخرجه البخاري،كتاب بدء الخلق – باب خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ :(٤/ ١٥٥)،برقم (٣٣٠٣)،ومسلم، صحيح مسلم ،كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ –بَابُ اسْتِحْبَابِ الدُّعَاءِ عِنْدَ صِيَاحِ الدِّيكِ:(٤/ ٢٠٩٢) ،برقم(٢٧٢٩) .

(٣) أخرجه الطبراني : (١٠/ ٢٤٧) ، برقم (١٠٤٥٩) .

(٤) مُسِيخَةٌ : أَيْ مُصْغِيَةٌ مُسْتَمِعَة . النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير : (٢/ ٤٣٣) .

(٥)أخرجه أبو داود ، أبواب الجمعة– باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة : (٢/ ٢٧٧) ، برقم (١٠٤٦) ، قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح.

المبحث الاول

الدلالة على احياء الموتى

لا شك أن التكذيب بوقوع البعث وإحياء الناس للحساب والجزاء كان من اكثر الشبهات لدى الكافرين ومن اشد العقبات التي واجهها الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة ، ولهذا أكثر القرآن في الرد عليهم ونهج منهجاً قويماً بذكر الادلة والبراهين الواضحة للعيان للمنكرين وغير المنكرين ، فالمنكرون ليؤمنوا وغير المنكرين ليزدادوا ايمانا .

وقد كان للحيوان نصيب من هذه البراهين والأدلة المادية المحسوسة الدالة على الحق المبين في قدرة رب العالمين على احياء العظام وهي رميم .

وقد ذكر القرآن الكريم شواهد تاريخية من القصص الواقعية التي تشبه وقوع البعث واحياء الناس للحساب والجزاء ، وسأبين ذلك من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول : قصة بقرة بني اسرائيل .

المطلب الثاني : احياء حمار عزيز .

المطلب الثالث : طيور سيدنا ابراهيم – عليه السلام – .

المطلب الرابع : كلب اصحاب الكهف .

المطلب الأول

قصة بقرة بني اسرائيل

البقر : اسم جنس ، والبقرة : تقع على الذكر والانثى ، والهاء للافراد ، والجمع بقرات،[١] واشتق هذا الاسم من بَقَرَ اذا شقّ الارض بالحراثة ، وهو حيوان شديد القوة ، كثير المنفعة ، خلقه الله ذلولاً ، ولم يخلق له سلاحا شديد كما للسباع ، فهو في رعاية الانسان الذي يدفع عنه ضرر عدوه ، فلوكان له سلاح لصعب على الانسان ضبطه . [٢]

---

(١) ينظر : الصحاح للجوهري : (٥٩٤/٢) ، ولسان العرب ، لابن منظور : (٧٣/٤) .

(٢) ينظر : حياة الحيوان الكبرى ، للدميري : (٢١٤/١) .

قـــال الله تعـــالى : ﴿ وَإِذْ قَـالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (١)

قصة البقرة ذكرت في أطول سورة في القرآن الكريم وسميت باسمها حيث بدأت احداث هذه القصة بالذبح وانتهت بالإحياء ، وتخللها احداث مثيرة ، وامور خارقة للعادة .

وسبب هذه القصة على ما قاله علماء السير والاخبار : انه كان في بني اسرائيل رجل عقيم لا يولد له ، وكان له مال كثير ، فاستبطأ ابن أخيه موته ، وقيل : أخوه ، وقيل : ابن عمه ، وقيل : ورثة غير معينين فقتله ليرثه ، والقاه في سبط آخر غير سبطه ؛ ليأخذ ديته ويلطخهم بدمه ،(٢)

ثم شكا ذلك الى موسى عليه السلام ، فاجتهد موسى في تعرف القاتل ، فلما لم يظهر ، قالوا له : سل لنا ربك حتى يبينه ، فسأل موسى ربه في ذلك فأمره بذبح بقرة ، فتعجبوا من ذلك ، ثم شددوا على انفسهم بالاستفهام حالا بعد حال واستقصوا في طلب الوصف ، فلما تعينت لم يجدوها بذلك النعت الا عند انسان معين ، ولم يبعها الا بأضعاف ثمنها فاشتروها وذبحوها ، وامرهم موسى بان يأخذوا عضوا منها فيضربوا به القتيل ، ففعلوا فصار المقتول حيا وسمى لهم قاتله ، وهو الذي ابتدأ بالشكاية ، فقتلوه قودا ، ولم يورث قاتل عمد بعد . (٣)

وقصة وجود هذه البقرة على ما روي أنها وجدت عند رجل من بني اسرائيل براً بابيه ، وقال قوم : وجدت عند عجوز تعول يتامى كانت البقرة لهم ، وقال مجاهد : كانت لرجل يبر بأمه ، وأخذت منه بملء جلدها دنانير ، الى غير ذلك من اختلاف في قصتها . (٤)

---

(١) سورة البقرة ، الآية (٦٧) .

(٢) ينظر : المحرر الوجيز ، لابن عطية : (١٦١/١) ، والبحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي : (٤٠٣/١) ، والجواهر الحسان للثعالبي : (٢٥٩/١) .

(٣) ينظر : التفسير الكبير للرازي : (٥٤٣/٣-٥٤٤) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير : (٢٩٤/١) .

(٤) ينظر : المحرر الوجيز لابن عطية : (١٦٤/١) .

والذبح : هو قطع أعلى العنق ، وهو المستحب في الغنم والبقر ، والنحر : هو قطع اللبة اسفل العنق ، وهو المستحب في الابل ، والمرعي في الحالتين قطع الحلقوم والمريء لكن عنق الابل طويل فإذا قطع اعلاه تباطأ الزهوق ، ولا يكره الذبح في الابل والنحر في البقرة والغنم وان كان خلاف المستحب . (١)

وقد ذكرت أوصاف يشترط وجودها في البقرة ليستساغ ذبحها :

أولها : أنها لا هرمة ولا صغيرة ، عوان بين ذلك ، أي : النصف وهو التوسط بين الشيئين ، وذلك أقوى ما يكون وأحسنه ؛ وذلك لان الصغيرة تكون ناقصة لأنها لم تصل الى حالة الكمال ، والمسنة صارت ناقصة لتجاوزها حد الكمال والمتوسط هو الذي يكون في حال الكمال . (٢)

ثانيها : انها لم تذلل بالعمل في الحراثة والسقي ، وهي سالمة من العيوب لا اذنها مثقوبة ولا رجلها عرجاء ، ولا فيها علامة من العلامات التي يميز الناس ابقارهم بها . (٣)

ثالثها : انها لا شية فيها ، أي : لا علامة فيها تشينها ، ولا لون يخالف لون سائر جسدها غير اللون الاصفر الفاقع الذي يعجب الناظرين ، كان شعاع الشمس يخرج من جلدها ،(٤) وهذا اللون من احسن الوان البقر ، فلذلك اسند فعل (تسرُّ) الى ضمير البقرة لا الى ضمير اللون ، فلا يقتضي أن اللون الاصفر مما يسر الناظرين مطلقاً . (٥)

وهذه الاوصاف في البقرة سببها أنهم شددوا على انفسهم فشدد الله عليهم ، ودين الله يسر ، وأن التنطع في الدين والإلحاف في السؤال مما يقتضي التشديد في الاحكام ، وقد نهينا عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ

---

(١) غرائب القرآن للنيسابوري : (٣١١/١) .
(٢) ينظر : اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي : (١٦١/٢) .
(٣) ينظر : تفسير الشعراوي : (٣٩٦/١) .
(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : (٤٥٠/١) ، وتفسير التستري : (٣١/١) .
(٥) التحرير والتنوير لابن عاشور : (٥٥٣/١) .

وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [١] وبما جاء في صحيح الحديث عن رسول الله ((وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ)) . [٢][٣]

فان قيل : لم شرط في احياء القتيل ذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات ؟ فأجيب في الاسباب والشروط حكم وفوائد :

اولاً : انما اشترط ذلك لما في ذبح البقرة من التقرب واداء التكاليف واكتساب الثواب ، فهي افضل قرابينهم، وللمتقرب أن يتحرى الاحسن ، ويغالي بثمنه ، وقال بعض أهل العلم : البقر سيد الحيوانات الْإِنْسِيَّةِ . [٤]

ثانياً : ليهون عندهم كل تعظيم وتقديس للبقر ؛ لأنه من جنس ما عبدوه فكأنه سبحانه وتعالى اراد أن ينبههم ان هذا البقر الذي يضرب به المثل في البلادة لا يصلح أن يكون معبودا من دون الله ، وانما يصلح للحرث والسقي ، والعمل والذبح . [٥]

ثالثا : النفع لليتيم بالتجارة الرابحة ، وان المال الحلال يبارك الله فيه ولو كان قليلا ، والتنبيه على بركة التوكل والشفقة على الاولاد ، والدلالة على بركة بر الوالدين . [٦]

ولقد اظهر الله تعالى حجته على خلقه من خلال احياء ميت بجزء من ميت ، ولو أنه تعالى أحيا القتيل بدون أن يضرب بقطعة من البقرة المذبوحة ، لقالوا : لم يكن ميتا ، وانما كان في حالة اغماءه ثم افاق ، أو أن موسى احياه بضرب من السحر والحيلة ولكنه تعالى اراد أن يعطيهم درسا ، وهم الماديون في أنه لم يحي بشيء انتقل اليه من الجسم الذي ضرب به ، انما حيي بفعل فعلوه هم ، ليعرفوا وهم على قيد الحياة

---

(١) سورة المائدة ، الآية (١٠١) .
(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الِاسْتِقْرَاضِ وَأَدَاءِ الدُّيُونِ وَالْحَجْرِ وَالتَّفْلِيسِ – بَاب مَا يُنْهَى عَنْ إِضَاعَةِ الْمَالِ : (١٢٠/٣) ، برقم (٢٤٠٨) ، ومسلم ، كتاب الأقضية – باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة : (٣/ ١٣٤١)، برقم (٥٩٣) .
(٣) ينظر : المحرر الوجيز لابن عطية : (١٦٤/١) .
(٤) ينظر : الكشاف للزمخشري : (١٥٣/١-١٥٤)، والبحر المحيط لأبي حيان : (٤٠٤/١) .
(٥) ينظر : تفسير القران العظيم لابن كثير : (١٠٨/١) ، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم ، لمحمد سيد طنطاوي : (١٦٤/١) .
(٦) ينظر : الكشاف للزمخشري : (١٥٤/١) .

كيف يحي الله الموتى ، ويوقنوا ان الانسان لا يبقى حياً بأسباب الحياة ولكن بإرادة مسبب الحياة جل في علاه . (١)

وهذا المعنى علة في ذبح البقرة وليس بعلة في جواب السائل وهو أن يحيا القتيل بقتل حي ، فيكون أظهر لقدرته في اختراع الاشياء من أضدادها . (٢) وذكر المفسرون اقوالاً في تحديد (البعض) الذي أمر بنو اسرائيل بضرب الميت به ، لكنها لا تعود علينا بفائدة في امر الدين أو الدنيا فأبهمه الله تعالى ، ولم يجي من طريق صحيح عن معصوم بيانه فنحن نبهمه كما ابهمه الله ، وهذا ما قرره الطبري وأكده ابن كثير – رحمهما الله– (٣) وقد ساق القرآن الكريم هذه القصة باسلوبه البديع الذي يأخذ بمجامع القلوب ، ويحرك النفوس الى النظر والاعتبار ، فجمهور المفسرين على ان واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها حصلت قبل الامر بذبح البقرة الا أن القرآن أخرها في الذكر ؛ ليعدد على بني اسرائيل جناياتهم وليشوق النفوس الى معرفة الحكمة من وراء الامر بذبحها فتتقبلها بشغف واهتمام . (٤)وفي قوله تعالى : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (٥) هذا اخبار عن تثبيطهم في ذبح البقرة ، وقلة مبادرتهم الى امتثال امر الله وقيل : لغلاء ثمنها ، وقال آخرون : خوفا من الفضيحة على انفسهم في معرفة القاتل منهم ، وهذا ذم لهم لأنه لم يكن غرضهم الا التعنت فلهذا ما كادوا يذبحونها . (٦) لقد اراد الله سبحانه وتعالى من قصة ذبح البقرة وضرب الميت ببعضها ان يثبت قدرته على احياء الموتى ، فان من قدر على احياء نفس واحدة ، قدر على احياء الانفس كلها ، فهي خطاب وعبرة لبني اسرائيل ولمن جاء بعدهم من المتشككين بقدرة الله . (٧)

---

(١) ينظر : التفسير الكبير للرازي : (٥٥٣/٣) ، وتفسير الشعراوي : (٤٠٠/١) .
(٢) ينظر : الجامع لأحكام القران للقرطبي : (٤٥٥/١) ، واللباب لابن عادل الحنبلي : (٢/ ١٥٦) .
(٣) ينظر: جامع البيان للطبري : (٢٣١/٢) ، وتفسير القران الكريم لابن كثير: (٣٠٢/١) .
(٤) ينظر: التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي : (١٦٩/١) .
(٥) سورة البقرة ، من الآية (٧١) .
(٦) ينظر: احكام القران للقرطبي : (٤٥٥/١) ، وتفسير القران العظيم لابن كثير : (٣٠٢/١) .
(٧) ينظر: الكشاف للزمخشري : (١٥٣/١) .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[١] إنها آيات وليست آية واحدة ، فهي تدل على وجود الصانع القادر على كل شيء ، والعليم المختار في الايجاد والابداع وعلى صدق موسى –عليه السلام – ، وعلى براءة من لم يقتل ، وعلى تعيين القاتل الذي بسببه كادت تعمهم الفتنة والنقمة . [٢]

وأن الله مخرج ما كانوا يكتمونه من الحق ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [٣] فالحق مهما طال كتمه لا بد أن يظهر ويعلو في النهاية ، وقد اظهر الله هذا الحق ونصره عن طريق معجزة ربانية كانت عن طريق هذا الحيوان (البقرة) .

المطلب الثاني

احياء حمار عزيز

الحمار : جمعه الحمير والحُمرات وأحمرة ، والانثى حماره ، [٤] وهو حيوان داجن من الفصيلة الخيلية ، يستخدم للركوب والحمل ، وكنيته : ابو صابر وأبو زياد ، ويقال للحمارة أم محمول وأم جحش ، [٥] ويوصف ويوصف بالهداية الى سلوك الطرقات التي مشى فيها ولو مرة واحدة وبحدة السمع ، وقالوا عنه : أصبر من حمار ، وصوته أنكر الاصوات . [٦] وفي الصحيحين وغيرهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – ، أَنَّ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ : ((إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَانًا)). [٧]

---

(١) سورة البقرة ، من الآية (٧٣) .
(٢) ينظر: اللباب لابن عادل الحنبلي : (٢/ ١٨٢) .
(٣) سورة البقرة ، من الآية (٧٢) .
(٤) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري : (٣٦/٥) ، والصحاح للجوهري : (٣٣٦/٢) .
(٥) ينظر: موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي لعبد اللطيف عاشور : (١٥١/١) .
(٦) ينظر: حياة الحيوان الكبرى للدميري : (٣٣٨/١-٣٣٩) .
(٧) أخرجه البخاري ، كتاب بدء الخلق – باب خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ: (١٥٥/٤) ، برقم (٣٣٠٣) ، ومسلم ، كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ– بابُ اسْتِحْبَابِ الدُّعَاءِ عِنْدَ صِيَاحِ الدِّيكِ: (٤/ ٢٠٩٢)، برقم (٢٧٢٩) .

وقد ورد ذكر الحمار في القران الكريم في خمسة مواطن باسمه المعروف به منفردا في أربعة مواطن ومجموعاً في مواطن واحد ، والذي يعنينا قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [١] ورد ذكر الحمار في هذه الآية في سياق اثبات أمر عظيم الا وهو احياء الله للموتى ، لإثبات البعث والرد على منكريه من الكفار والمشركين ، وتخصيص الحمار في هذه الآية – والله أعلم – لمكانة هذا الحيوان عند الانسان وقربه منه ، ولما كان عليه الانبياء والصالحون من التواضع ، وخفض الجناح ، فكانوا يركبون الحمر ويلبسون الصوف ويحلبون الشاة ، وكان للنبي – صلى الله عليه وسلم – حمار اسمه عفير والاخر اسمه يعفور، وهو كغيره من الحيوانات خلقها اله وفطرها على توحيده وتسبيحه ، فهو مع أنه بهيمة أفضل من كثير ممن يتجاهل أو نأى بنفسه عن وظيفة الدعوة الى الله . [٢] وقد ذكر اكثر أهل العلم أن الذي مرّ على تلك القرية هو عزير – عليه السلام – وقيل : غيره ، ولا شك أن التخصيص في ذكر اسم القرية والمار عليها لا يعنينا ، لان الحق سبحانه وتعالى حين يبهم التشخيص فذلك لحكمة يريدها سبحانه ، والآية هنا في مجال عرض قدرته سبحانه وتعالى . [٣]وروح الآية وفحواها يلهمان أن الرجل كان مؤمناً وأهلا لوحي الله وخطابه ، ولاختصاصه بهذه الآية العظيمة ، وهي الموت مائة عام ثم اعادته حياً ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية (٢٥٩) .

(٢) فضل الحمير على كثير من مدعي التحقيق والتحرير ، كتبه : أبو عمر أسامة بن عطايا بن عثمان العتيبي الفلسطيـــني (الحلقة الثانية) ، مقال منشور على موقع الانترنت https://saaid.net/muslm/ .

(٣) ينظر: فتح القدير للشوكاني : (٣٢٢/١) ، وقصص الانبياء والمرسلين ، للشيخ محمد متولي الشعراوي : (ص : ٤٨) .

وابقاء الطعام والشراب على حالهما ، واعادة الحمار حيّاً بعد ما صار رميما ومشاهدة اعادة اجزاء الحمار الى التركيب والى الحياة ، وفي هذا تشريف وتكريم وتعظيم . (١)

قال تعالى : ﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بعمرها بعد خرابها .

الثاني : يعيد اهلها بعد هلاكهم . (٢)

معناه : من أي طريق ؟ وبأي سبب ؟ فكأن هذا تلهف من الواقف المعتبر على مدينته التي عهد فيها أهله وأحبته ، وضرب له المثل في نفسه بما هو اعظم مما سأل عنه . (٣)

قال تعالى : ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ أي : جعله فاقدا للحس والحركة والادراك بدون ان تفارق الروح البدن مثل ما حدث لأهل الكهف وعبر بالبعث دون الاحياء ايذاناً بأنه عاد كما كان اولاً حياً عاقلاً مستعداً للنظر والاستدلال . (٤)

قال تعالى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ أي مكثت ُ ﴿ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ لأن الله تعالى اماته في أول النهار ، وأحياه بعد مائة عام آخر النهار ، فقال يوماً ثم التفت فرأى بقية الشمس فقال : ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير ، فوجده لم يتغير منه شيء الا العصير استحال ، ولا التين حمض ولا انتن ، ووجد العنب طرياً جنياً . (٥)

---

(١) ينظر : التفسير الكبير للرازي : (٢٦/٧-٢٧) ،والتفسير الحديث ، دروزة محمد عزت : (٤٧٥/٦) .
(٢) النكت والعيون للماوردي : (٣٣١/١) .
(٣) ينظر : المحرر الوجيز لابن عطية : (٣٤٨/١) ، والجامع لأحكام القران للقرطبي : (٢٩٠/٣) .
(٤) تفسير المراغي : (٢٢/٣) .
(٥) ينظر : النكت والعيون للماوردي : (٣٣١/١) .

﴿ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ فنظر الى حماره فاذا هو عظام بالية ، فرأى العظام قد تحركت وسعى بعضها الى بعض ، وجاء الرأس الى مكانه ، ثم رأى العصب والعروق القيت عليها ، ثم وضع عليها اللحم ، ثم بسط عليها الجلد ثم نفخ فيه الروح ، فاذا هو قائم ينهق بأذن الله عز وجل . (١)

والنظر الى هذه العظام من حيث دلالتها على اللبث المديد وثانياً هو النظرُ إليها من حيث تعتريها الحياةُ ومباديها. (٢) وإنما ذكر سبحانه وتعالى عدم تغير طعامه وشرابه بعد إخباره انه لبث مائة عام مع ان عدم تغير ذلك الطعام والشراب لا يصلح ان يكون دليلا على تلك المدة الطويلة ، فإذا رأى طعامه وشرابه لم يتغير مع كونه قد ظن انه لم يلبث إلا يوما أو بعض يوم زادت حيرته وقويت عليه الشبهة ، فإذا نظر إلى حماره عظاما نخرة تقرر لديه ان ذلك صنع من تأتى قدرته بما لا تحيط به العقول ، فإن الطعام والشراب سريع التغير وقد بقي هذه المدة الطويلة غير متغير والحمار يعيش المدة الطويلة وقد صار كذلك ، فتبارك الله أحسن الخالقين. (٣)

اذن الحمار هو الذي تعرت عظامه وتفسخت ، ثم كانت الآية هي ضم هذه العظام بعضها الى بعض وكسوتها باللحم وردها الى الحياة على مرأى من صاحبه الذي لم يمسه البلى ، ولم يصب طعامه ولا شرابه التعفن ؛ ليكون هذا التباين في المصائر والجميع في مكان واحد ، معرضون لمؤثرات جوية وبيئية واحدة ، آية أخرى على القدرة التي لا يعجزها شيء والتي تتصرف مطلقة من كل قيد ، وليدرك الرجل كيف يحيي هذه الله بعد موتها . (٤)

---

(١) ينظر : تفسير القرآن العزيز لابن أبي زَمَنِين : (٢٥٤/١) .
(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود : (٢٥٤/١) .
(٣) ينظر : فتح القدير للشوكاني : (٣٢١/١) ، وتفسير المراغي : (٢٤/٣) .
(٤) ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب : (٣٠٠/١) .

﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي فعلنا ما فعلنا من احيائك واحياء حمارك وحفظ ما معك من الطعام والشراب ليزال تعجبك، فالقادر على أن يكسو العظام لحما ويمدها بالحياة ، قادر على أن يعيد الخصب والعمران للقرية ، وكذلك القادر على الإحياء بعد لبث مائة عام قادر على الإحياء بعد لبث الموتى آلاف السنين. (١)

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (ننشرها) من أنشر الله الموتى أي : أحياهم وحجتهم قوله تعالى ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، وقرأ الباقون (ننشزها) بالزاي المعجمة ، يعني كيف نرفعها من الارض الى الجسد ، ونؤلف بعضها الى بعض ، وقرأ حمزة والكسائي (إعلم) جزما على الامر من الله ، والحجة جريا على ما تقدم من الامر في قوله : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ ﴾ ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ ﴾ ، وقرأ الباقون (أعلم) رفعا على الخبر عن نفس المتكلم ، والحجة أنه لا وجه لان يؤمر بأن الله على كل شيء قدير وقد عاين وشاهد ما كان يستفهم عنه . (٢) ان هذه المعجزة من المعجزات التي تحدث عنها القران الكريم الدالة على قدرة الله تعالى على احياء الموتى ، وليكون للحيوان دور في هذه القضية وأنموذجا محسوسا مشاهدا بالأبصار لإثبات صحة ما جاءت به الرسل من عند الله سبحانه وتعالى ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (٣)

المطلب الثالث

طيور سيدنا ابراهيم – عليه السلام –

الطير : اسم جامع مؤنث ، والواحد طائر ، وقلما يقولون طائرة للأنثى ويجمع الطير على أطيار وطيور، (٤) والطيران حركة ذي الجناحين في الهواء بجناحيه قال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ

---

(١) ينظر : تفسير المراغي : (٢٤/٣) .
(٢) ينظر : حجة القراءات لعبد الرحمن بن زنجلة : (١٤٤/١-١٤٥) .
(٣) سورة لقمان ، من الآية (٢٨) .
(٤) ينظر : العين للفراهيدي : (٤٤٧/٧) .

يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [١] أي في الخلق والرزق والحياة والموت والحشر والمحاسبة والاقتصاص من بعضها لبعض ، فاذا كان هذا الفعل بالبهائم فنحن أحرى اذ نحن مكلفون عقلاً ،[٢] قال الزمخشري – رحمه الله – : (الغرض من ذكر ذلك الدلالة على عظم قدرته ولطف علمه وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف ، وهو حافظ لما لها وما عليها ، مهيمن على أحوالها ، لا يشغله شأن عن شأن) .[٣] وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، قَالَ: ((يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ، أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ)) قال النووي – رحمه الله – : " قيل مثلها في رقتها وضعفها، وقيل في الخوف والهيبة والطير أكثر الحيوان خوفا وفزعا ، وقيل : المراد متوكلون " .[٤]

وتساعدنا الطيور في عدة أمور : فهي تأكل الديدان الضارة ، والفيران وبذور الحشائش والحيوانات الميتة، كما أنها تمدنا بالطعام، واستخدم الحمام الزاجل في نقل الرسائل ، وبطبيعة الحال فإن الطيور تجعل حياتنا أكثر بهجة بألوانها الزاهية، وتغريدها العذب. [٥]

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . [٦]

---

(١) سورة الانعام ، من الآية (٣٨) .
(٢) حياة الحيوان الكبرى للدميري : (١٢٦/٢) .
(٣) الكشاف للزمخشري : (٢١/٢) .
(٤) شرح صحيح مسلم للنووي : (١٧٧/١٧) ، والحديث أخرجه مسلم ، كتاب الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا – بَابُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ : (٢١٨٣/٤) ، برقم (٢٨٤٠) .
(٥) ينظر : موسوعة الطير والحيوان : (٢٦٢/١) .
(٦) سورة البقرة ، الآية (٢٦٠) .

ذكر المفسرون اسباباً لسؤال ابراهيم – عليه السلام – منها : أنه رأى جيفة تمر فيها السباع ، فقال ذلك ، وقيل : لمنازعة النمرود له في الاحياء ورده عليه بقوله ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ ﴾[١] فأحب ان يترقى من علم اليقين الى عين اليقين ، وان يرى ذلك مشاهدة . [٢]

قال جمهور المفسرين : إن إبراهيم –عليه السلام– لم يكن شاكا في قدرة الله على إحياء الموتى وإنما طلب المعاينة ، وذلك أن النفوس مستشرقة إلى رؤية ما أخبرت به ، ولهذا جاء في الحديث : ((لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ)). [٣]

وأما قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : ((نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ)) فمعناه : أنه لو كان شاكا لكنا نحن أحق بالشك منه ، ونحن لا نشك فإبراهيم – عليه السلام – أحرى أن يشك ، وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكا ، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو عن حال شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤول وكيف هنا إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء والإحياء متقرر ، فسؤال ابراهيم انما هو عن كيفيته لا عن أصل القضية . [٤]

اختلف المفسرون في تعيين الطيور الاربعة ، وان كان لا طائل تحت تعيينها اذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القران ، فقيل : أخذ طاوسا وديكا وحمامة وغرابا ، وقيل : نسرا بدل الحمامة ، وفي الطاوس إشارة إلى ما في الإنسان من حب الزينة والجاه ، وفي النسر إشارة إلى شدة الشغف بالأكل ، والديك إشارة إلى شدة الشغف في حب الجماع ، وفي الغراب إشارة إلى شدة الحرص، ففي هذه الطيور مشابهة لما في الإنسان من

---

(١) سورة البقرة ، من الآية (٢٥٨) .

(٢) ينظر : النكت والعيون للماوردي : (٣٣٣/١) ، وتفسير القران العظيم لابن كثير : (٦٨٩/١) .

(٣) الجامع لأحكام القران للقرطبي : (٢٩٧/٣–٢٩٨) ، والحديث أخرجه احمد في مسنده : (٣٤١/٣) ، برقم (١٨٤٢) ، وقال شعيب الأرنؤوط ومن معه : حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين.

(٤) ينظر : المحرر الوجيز لابن عطية : (٣٥٣/١) ، والتفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوى : (٤٨٤/١) ، والحديث أخرجه البخاري ، كتاب التفسير –باب {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى}: (٣٩/٦) ، برقم (٤٥٣٧) ، ومسلم ، كِتَابُ الْإِيمَانِ– بَابُ زِيَادَةِ طُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ بِتَظَاهُرِ الْأَدِلَّةِ : (١٣٣/١) ، برقم (١٥١) .

حب هذه الأوصاف ، وفيه إشارة إلى أن الإنسان إذا ترك هذه الشهوات الذميمة لحق أعلى الدرجات في الجنة، وفاز بنيل السعادات . (١)

والحكمة في اختيار الطير من جملة الحيوانات بهذه الحالة لان الطير صفته الطيران في السماء والارتفاع في الهواء، وكانت همة إبراهيم – عليه السلام – كذلك وهو العلو في الوصول إلى الملكوت فكانت معجزته مشاكلة لهمته ، ولأن الطير أقرب إلى الإنسان بإعتبار طلبه المعاش والمسكن ولذلك جاء في الحديث : ((لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا)) ولأنه أجمع لخواص الحيوان ولسهولة التجربة عليه ، ولان الطير أكثر نفورا من الانسان في الغالب ، فإتيانها بمجرد الدعوة أبلغ في المثل . (٢)

قرأ حمزة (فصرهن) بكسر الصاد ، أي : قطعهن وشققهنَّ ومزقهنَّ ، وقرأ الباقون (فصرهن) بضم الصاد، أي : أملهن وأجمعهن ، وقال الكسائي : وجههن اليك ، وكان أبو عمرو يقول : ضمهنّ اليك . (٣)

والفائدة من هذا الضم وهذا الجمع ، ليتأمل اشكال الطيور وهيئاتها ؛ لئلا تلبتس عليه بعد الاحياء ولا يتوهم انها غير ذلك . (٤)

ذكر المفسرون : ان إبراهيم – عليه السلام – عمد الى اربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن، وخلط بعضهن ببعض ، ثم جزأهن أجزاءاً وجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم دعاهن كما أمره الله عز وجل ، فاقبلن مسرعات اليه بعد ان انضم كل جزء الى اصله . (٥)

﴿ ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗا ﴾ وأمره بدعائهن وهن أموات إنما لتقرب الآية منه وعرض ذلك عليه ، وكان اتيانهن مسرعات في المشي ابلغ في الآية اذ اتيانهن اليه من الجبال تمشي مسرعات هو على خلاف

---

(١) ينظر : لباب التأويل للخازن : (١٩٨/١) ، وتفسير القران العظيم لابن كثير : (٦٩٠/١) .

(٢) ينظر : روح المعاني للألوسي : (٢٨/٢) ،والحديث أخرجه الترمذي ، سنن الترمذي ، ابواب الزهد – بَابٌ فِي التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ :(١٥١/٤) ، برقم (٢٣٤٤) ، وقال الترمذي : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الوَجْهِ .

(٣) حجة القراءات لعبد الرحمن بن زنجلة : (١٤٥/١) .

(٤) ينظر : التفسير الكبير للرازي : (٣٧/٧) ، والتحرير والتنوير لابن عاشور : (٤٠/٣) .

(٥) ينظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : (٦٩٠/١) .

المعهود لهن من الطيران ، وذلك لإظهار عظم الآية ، وجعل سيرهن اليه سعيا اذ هي مشية المجد الراغب فيما يمشي اليه ؛ لإظهار جدها في قصد ابراهيم – عليه السلام – واجابة دعوته ، ولو جاءت مشيا لزالت هذه القرينة ولو جاءت طيرانا لكان ذلك على عرف أمرها ، فوقف ابراهيم عليه السلام على العلم بالعزة التي في ضمنها القدرة وعلى الحكمة التي بها إتقان كل شيء . (١)

وهذه القصة دليل آخر على إثبات قدرة الله على إحياء الموتى، مهما تلاشت أجزاؤها، وتفتت ذراتها، وتطاول الزمان على موتها، ولم يكن إبراهيم عليه السلام شاكّا في القدرة الإلهية على ذلك، وإنما ليثبت الاعتقاد بالتجربة الحسيّة أو الخبر بالمعاينة ، وهذا يشير إلى أهمية العلم التجريبي، والاختبارات العملية، لمعرفة كيفية تركيب الأشياء ، وقد كانت هذه المعجزات داحضة للشكوك التي اثيرت حول بعث الأجساد والأرواح التي مات أصحابها في البرّ والبحر والجوّ على مدى مرور آلاف السنين، فكان هذا الطلب في محله ؛ ليخرس الألسنة ، ويطمئن الأفئدة ، ويزيل الشكوك في المعتقدات. (٢)

المطلب الرابع

كلب اصحاب الكهف

الكلب : حيوان معروف ، وربما وصف به ، فقيل للرجل كلب وللمرأة كلبة ، والجمع أكلب وكلاب وكليب،(٣) وهو حيوان شديد الرياضة ، كثير الوفاء ، وهو لا سبع ولا بهيمة ، حتى كأنه من الخلق المركب لأنه لو تم له طباع السبعية ما ألف الناس، ولو تم له طباع البهيمية ما أكل لحم الحيوان ، وفيه من اقتفاء الأثر، وشم الرائحة ما ليس لغيره من الحيوانات، والجيفة أحب إليه من اللحم الغريض، ويأكل العذرة ، ويرجع في قيئه . (٤)

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز لابن عطية : (٣٥٥/١) .
(٢) ينظر : التفسير المنير للزحيلي : (٣٩/٣) .
(٣) ينظر : الصحاح للجوهري : (٢١٣/١) .
(٤) حياة الحيوان الكبرى للدميري : (٣٧٨/٢) .

وهو حيوان أهلـيّ من الفصيلة الكلبية، ورتبة اللواحم، فيه سلالات كثيرة تربى للحراسة، ومن طبيعته أن يحرس صاحبه، ويحمى بيته حاضرا وغائبا، وهو أيقظ الحيوان عينا ، وهو في نومه اسمع من فرس واحذر من غراب ، ويقال في الامثال : (سمن كلبك يأكلك) و (جوع كلبك يتبعك) . (١)

قال تعالى :﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ (٢)

ان قصة أصحاب الكهف من القصص العظيمة التي يجب على كل مسلم أن يتعرفها ويستنبط الحكم والعبر منها ، ولمكانتهم وعلو شأنهم سميت سورة كاملة في القرآن الكريم باسمهم ، وجعل لقراءة هذه السورة يوم الجمعة فضل النور بين الجمعتين ، فقصة هؤلاء الفتيه قصة عظيمة جديرة بالاهتمام .

قال كثير من المفسرين والمؤرخين وغيرهم : كان هؤلاء الفتية في زمن ملك يقال له دقيانوس ، وان قومهم كانوا مشركين يعبدون الاصنام ، وكانوا من أبناء الأكابر، واتفق اجتماعهم في يوم عيد لقومهم ، فرأوا ما يتعاطاه قومهم من السجود للأصنام والتعظيم للأوثان ، فنظروا بعين البصيرة وكشف الله عن قلوبهم حجاب الغفلة ، والهمهم رشدهم ، فعلموا أن قومهم ليسوا على شيء ، فخرجوا عن دينهم ، وانتموا إلى عبادة الله وحده لا شريك له. (٣)

وكان من لطف الله بالفتية الذين امنوا أن ملكهم قد أمهلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه ، فوجدوها فرصة مواتية، وهربوا فرارا بدينهم من الفتنة ، وقرروا الالتجاء الى احد الكهوف للاختباء فيه ، ودعوا ربهم أن ينقذهم قائلين : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (٤)

---

(١) ينظر : موسوعة الطير والحيوان : (٣٦٥/١) .
(٢) سورة الكهف ، الآية (١٨) .
(٣) ينظر : البداية والنهاية ، لابن كثير : (١١٥/٢) .
(٤) سورة الكهف ، من الآية (١٠) .

فاستجاب الله لدعائهم فأنامهم الله ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا ثم بعثهم بعد تلك المدة الطويلة بكامل هيئتهم وجعلهم عبرة للمعتبرين . (١)

أكثر المفسرين قالوا : إنهم هربوا ليلا من ملكهم فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ومعه كلبه ، وقال كعب : مروا بكلب فنبح عليهم فطردوه فعاد ففعلوا مرارا فقال لهم الكلب : ما تريدون مني لا تخشوا جانبي أنا أحب أحباء الله فناموا حتى أحرسكم ، وقال عبيد بن عمير : كان ذلك كلب صيدهم . (٢)

فقوله تعالى :﴿وَكَلْبُهُم ﴾ أريد به الحيوان المعروف النباح ، وأبعد من ذهب إلى أنه أسد، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنه رجل طباخ لهم تبعهم ، أو أحدهم قعد عند الباب طليعة لهم . (٣)

واختلفوا في لونه واسمه على أقوال لا حاصل لها، ولا طائل تحتها ، ولا دليل عليها، ولا حاجة إليها، بل هي مما ينهى عنه ، فإن مستندها رجم بالغيب . (٤)

وكان اقتناء الكلب جائزا في وقتهم كما هو عندنا اليوم جائز في شرعنا ، فلا بأس في شريعتنا باقتناء الكلب لذلك وأما فيما عداه وما عدا ما الحق به فمنهي عنه ، ففي البخاري عن ابْن عُمَرَ – رضى الله عنهما – عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ : ((مَنِ اقْتَنَى كَلْبًا لَيْسَ بِكَلْبِ مَاشِيَةٍ أَوْ ضَارِيَةٍ ، نَقَصَ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ عَمَلِهِ قِيرَاطَانِ)) وفي رواية ((نَقَصَ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ عَمَلِهِ قِيرَاطٌ)) . (٥)

وقوله :﴿بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ أخبر أن الكلب كان على مثل حالهم في النوم ، وهو في رأي العين منتبه يلقي ذراعيه على الارض مبسوطتين غير مقبوضتين ، كما جرت به عادة الكلاب .

---

(١) ينظر : التفسير الوسيط للدكتور وهبة الزحيلي : (١٤١٠/٢).
(٢) ينظر : التفسير الكبير للرازي : (٤٤٤/٢١) .
(٣) ينظر : البحر المحيط لأبي حيان : (١٥٣/٧) .
(٤) ينظر : تفسير القران العظيم لابن كثير : (١٤٤/٥) .
(٥) ينظر : الجامع لأحكام القران للقرطبي : (٣٧١/١٠) ، وروح المعاني للألوسي : (٢١٥/٨) ، والحديث أخرجه البخاري ، كتاب الذبائح – باب مَنِ اقْتَنَى كَلْبًا لَيْسَ بِكَلْبِ صَيْدٍ أَوْ مَاشِيَةٍ : (١١٢/٧) ، برقم (٥٤٨٠) .

وقولـه :﴿ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ قـال ابـن عبـاس ومجاهـد وسـعيد بـن جبيـر وقتـاده : الفنـاء وقـال ابـن عبـاس : الباب، وقيل : الصعيد وهو التراب . (١)

قـال الطبري – رحمـه الله – : (وأولـى الأقـوال فـي ذلـك بالصـواب، قـول مـن قـال: الوصـيد: البـاب، أو فنـاء البـاب ، حيث يغلق البـاب، وذلـك أن البـاب يُوصَـد، وإيصـاده: إطباقـه وإغلاقـه ، مـن قـول الله عز وجـل: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ (٢) فكـان معنـى الكـلام: وكلـبهم باسـط ذراعيـه بفنـاء كهفهـم عنـد البـاب، يحفـظ عليهم بابه) . (٣)

قـال ابـن جريـج : يحـرس عليهم البـاب، وهـذا مـن سـجيته وطبيعتـه، حيـث يـربض ببـابهم كأنـه يحرسـهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب كما ورد في الصحيح. (٤)

فشملت كلبهم بركتهم ، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، فذكر هذا الكلب على طول الآباد بجميل هذا الرقاد من بركة صحبة الامجاد . (٥)

قـال الشنقيطي – رحمـه الله – : (واعلم أن ذكره جل وعلا فـي كتابـه هذا الكلب، وكونـه باسطا ذراعيـه بوصيد كهفهم في معرض التنويه بشأنهم، يدل على أن صحبة الأخيار عظيمة الفائدة). (٦)

قـال القرطبـي – رحمـه الله – : (إذا كـان بعض الكـلاب قـد نـال هذه الدرجـة العليـا بصـحبته ومخالطتـه الصلحاء والأولياء ، حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبـين للأوليـاء والصـالحين بـل فـي هـذا تسـلية وأنـس للمـؤمنين المقصـرين عـن درجـات الكمـال ،

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز لابن عطية : (٥٠٤/٣) ، والتفسير الكبير للرازي : (٤٤٤/٢١) .

(٢) سورة الهمزة ، الآية (٨) .

(٣) جامع البيان للطبري : (٦٢٥/١٧ – ٦٢٦) .

(٤) تفسير القران العظيم لابن كثير : (١٤٤/٥) ، والحديث اخرجه البخاري ، كتاب بدء الخلق – باب إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ آمِينَ . وَالْمَلاَئِكَةُ في السَّمَاءِ ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ : (١٣٨/٤) ، برقم (٣٢٢٥) ، ومسلم ، كتاب اللباس والزينة – بَابُ لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ : (١٦٦٥/٣)، برقم (٢١٠٦) .

(٥) نظم الدرر لأبي بكر البقاعي : (٢٩/١٢) .

(٦) أضـواء البيـان للشنقيـطي : (٢٢٥/٣) .

المحبين للنبي – صلى الله عليه وسلم وآله خير آل– . روى الصحيح عن أنس بن مالك قال : بينا أنا ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سدة المسجد فقال : يا رسول الله، متى الساعة ؟ قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : ((مَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ قال : فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ ، ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صِيَامٍ ، وَلاَ صَلاَةٍ ، وَلاَ صَدَقَةٍ وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَالَ : أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ)) ، وفي رواية قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا، بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: ((فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ)) قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِم . قلت : وهذا الذي تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذي نفس ، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين ، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين ؛كلب أحب قوما فذكره الله معهم فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام ،وحب النبي –صلى الله عليه وسلم–. (١)

وهناك تماثل بين الفتية المؤمنين وقومهم المشركين وبين أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم– والذين آمنوا معه الذين كان عدد كبير منهم من شبان قريش الذين كان آباؤهم مشركين مناوئين للدعوة المحمدية ، حيث كانوا يتعرضون لأذى آبائهم واضطهادهم بقصد ردهم إلى الشرك بعد الإيمان، وقضية البعث والنشور والجزاء الأخروي من أهم ما كان يثير الجدل بين النبي – صلى الله عليه وسلم – والمشركين ، وهذه القصة قد احتوت آية من آيات الله التي تدل على البعث بعد الموت في واقعة شوهدت من قبل جمهور عظيم من الناس وتنوقلت أخبارها العجيبة . (٢)

إن بقاء هؤلاء الفتية وكلبهم في الكهف سنين عديدة آية من آيات الله العجيبة الدالة على قدرته وسعة علمه ، وأنه تعالى يصون المخلصين من عباده ، وهو مثلاً واقعياً على قدرته على البعث واعادة الاجساد الى الحياة بعد فنائها ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ (٣)

---

(١) الجامع لأحكام القران للقرطبي : (٣٧٢/١٠) ،والحديث الأول أخرجه البخاري ، كتاب الاحكام – باب الْقَضَاءِ وَالْفُتْيَا في الطَّرِيقِ :(٨١/٩) ، برقم (٧١٥٣) ،والحديث الثاني أخرجه مسلم ، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ – بَابُ الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ : (٤/ ٢٠٣٢) ، برقم(٢٦٣٩) .

(٢) ينظر : التفسير الحديث لمحمد عزة : (٦٠/٥) .

(٣) سورة الحج ، الآية (٧) .

المبحث الثاني
اظهار المعجزات المؤيدة للأنبياء – عليهم الصلاة والسلام–

المعجزة كما عرفها العلماء : انها امر خارق للعادة مقرون بالتحدي ، سالم عن المعارضة ، يظهره الله عز وجل على يد من اصطفاه تصديقا في دعوته ، [١] والله سبحانه وتعالى يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجزات من عنده ؛ لتكون آية للناس وبرهاناً واضحاً على صدق ما جاءوا به ، فيزداد الذين آمنوا ايماناً ، ولا يرتاب المتشككون والجاحدون بصدق الانبياء والمرسلين ولقد كان للحيوان نصيب من هذه المعجزات المدافعة عن الحق ونصرته .

وسنتعرف هذه الحقائق من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول : ناقة سيدنا صالح – عليه السلام – .

المطلب الثاني : ثعبان سيدنا موسى – عليه السلام – .

المطلب الثالث : الهدهد والنملة مع سيدنا سليمان– عليه السلام – .

المطلب الرابع : الدابّة .

المطلب الاول
ناقة صالح – عليه السلام –

الناقة : الانثى من الابل ،وقيل تسمى بذلك اذا أجدعت وهي تدل على المفرد ، وجمعها نوق ،أو أنوق ، وكذلك ايانق وانواق ونياق ،[٢] وتكنى الناقة بأم حائل ، وأم حوار ، ويقال لها بنت الفحل وبنت النجائب ، وفي المثل العربي قالوا : (لا ناقة لي فيها ولا جمل) ، لمن يتبرأ من الظلم والإساءة ، [٣] وهي من أنفس أموال العرب ، ويضربون بها المثل في نفاسة الشيء وعظم شأنه ومن ذلك قوله – صلى الله عليه وسلم – لسيدنا علي – رضي الله عنه – : (فَوَ اللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ

---

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : (٣/٤) .

(٢) ينظر : لسان العرب لابن منظور : (٣٦٢/١٠) .

(٣) ينظر : حياة الحيوان الكبرى للدميري : (٤٥٣/٢-٤٥٩) .

حُمْرُ النَّعَمِ) . [١] وتعد الناقة من الحيوانات العظيمة الخلق العديدة المنافع للإنسان وقد ذكرها القرطبي – رحمه الله – بأنها أجمع للمنافع من سائر الحيوانات لأنها حلوبة ، وركوبة ، وأكولة ، وحمولة ، فالنعمة بها أعم وظهور القدرة فيها أتم . [٢]وقد وردت (الناقة) في القران الكريم في سبعة مواضع ، مرتان في سورة الاعراف ، ومرة واحدة في كل من سورة هود ، والاسراء ، والشعراء ، والقمر ، والشمس ،وكلها تشير الى ناقة النبي صالح – عليه السلام –الذي أيده الله بمعجزة الناقة التي خرجت من بين الصخور ،وقد آمن به من آمن وكفر به من كفر . وقبيلة ثمود هي التي ارسل الله اليهم نبيه صالح – عليه السلام – وهم قبيلة مشهورة من قبائل العرب العاربة قبل ابراهيم الخليل – عليه السلام – وسمّوا باسم جدهم ثمود ، وقيل : سميت بذلك لقلة مائها ، وكانت مساكنهم بالحجر ، وهو مكان يقع الان تقريبا المنطقة التي بين الحجاز وشرق الاردن ، وما زال المكان الذي يسكنونه يسمى بمدائن صالح الى اليوم . [٣]

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [٤] قال بعض الناس: إن صالحاً جاء بالناقة من تلقاء نَفْسه، وقال الجمهور: هي آية مقْتَرَحَةً . [٥] قال ابن عطية : (وهذا أليق بما ورد في الآثار من أمرهم، وروي أن بعضهم قال «يا صالح» إن كنت صادقا فادع ربك يخرج لنا من هذه الهضبة وفي بعض الروايات من هذه الصخرة لصخرة بالحجر يقال لها الكاثبة ناقة عشراء قال فدعا الله فتمخضت تلك الهضبة وتنفضت وانشقت عن ناقة عظيمة، وروي:

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل الصحابة – باب مَنَاقِبُ عَلِيِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ : (٥/٢٢-٢٣) ، برقم (٣٧٠١) ، ومسلم ، كتاب الفضائل – بَابُ مِنْ فَضَائِلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (ﷺ) : (٤/١٨٧٢)، برقم (٢٤٠٦) .

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : (٢٠/٣٥) .

(٣) ينظر : قصص الأنبياء لابن كثير: (١/ ١٤٥) ، والتحرير والتنوير لابن عاشور : (٨/ ٢١٦) .

(٤) سورة الاعراف ، الآية (٧٣) .

(٥) ينظر : البحر المحيط لأبي حيان : (٥/ ٩٢) ، والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي : (٣/ ٤٩) .

أنها كانت حاملا فولدت سقبها المشهور) . [١] وهذه الناقة قد جعلها الله لثمود آية، ورفعها لأعينهم ليشهدوا منها ما لم يشهدوا من النّياق التي عرفوها ، وليأخذوا منها الشاهد الذي يشهد بقدرة الله، ويحدّث عن علمه وحكمته، ومن ثمّ يقوم لهم منها دليل على صدق الرسول الذي جاء يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى . [٢] وفي إضافة الناقة إلى اللّه تعالى في قوله : ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ تشريف لها وتكريم ، وتنبيه على أنها ناقة مخصوصة ليست كغيرها من النوق التي تستعمل في الركوب والنحر وغيرهما ، وقيل : لأنه لم يملكها أحد إلا الله ، وقيل : لأنها كانت حجة الله على قوم ثمود . [٣]

وذكر العلماء في كون الناقة آية وجوهاً :

أولاً : أنها كانت آية بسبب خروجها بكمالها من الصخرة ، فإنه سبحانه خلقها على خلاف سننه في خلق الابل وصفاتها ، فهي بالتكوين من غير اجتماع ذكر وأنثى ، ولم تكن في صلب ولا رحم ، ولم يكن للخلق فيها سعي ، وكمال خلقها من غير تدريج . [٤]

ثانياً : أنها تشرب في اليوم المحدد لها ما يشربه قوم صالح كلهم ، وتدر من اللبن مثل ما تشرب من الماء . [٥]

ثالثاً : أن وجه الاعجاز فيها أن يوم مجيئها الى الماء كانت جميع الحيوانات تمتنع من الورود على الماء، وفي يوم امتناعها ترد جميع الحيوانات . [٦]

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية : (٢/ ٤٢١) .
(٢) ينظر : التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب : (٦/ ١١٦٥) .
(٣) ينظر : لباب التأويل للخازن : (٢/ ٢٢٠) ، والتفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي : (٧/ ٢٣٤) .
(٤) ينظر : الكشف والبيان للثعلبي : (٤/ ٢٥١) ، والتفسير الكبير للرازي : (١٤/ ٣٠٥) .
(٥) ينظر : زاد المسير لابن الجوزي : (٢/ ١٣٤) .
(٦) ينظر: اللباب لابن عادل الحنبلي : (٩/ ١٩٣) .

لقد كانت هذه الناقة فتنة لهم ، واختباراً على الايمان بصالح (عليه السلام) وما جاء به من عند الله ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾[١] وقد جعل الله سلامة تلك الناقة علامة على سلامتهم من عذاب الاستئصال ، فطلب منهم أن لا يتعرض لها احد من القوم بسوء في نفسها ، ولا في أكلها ، ولا في شربها ، وأن ماء ثمود قسمة بينهم وبين الناقة ، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ،[٢] وقد بين ذلك تعالى وأكده في آيات أخر بقولـه : ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [٣] وفـي قولـه :﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [٤] وقولـه :﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾ [٥] وفـي نهيهم عن أن يمسوها بسوء تنبيه بالأدنى على الأعلى ؛ لأنه اذا قد نهاهم عن مسها بسوء اكراماً لها فنهيهم عن نحرها أو عقرها أو منعها من الكلأ والماء من باب أولى ، وفي تنكير (السوء) مبالغة في النهي ، وهذا وعيد شديد لمن يمسها بسوء . [٦] وإن ما أوصى الله في شأنها شبيه بحمى الملوك ، لما فيه من الدّلالة على تعظيم نفوس القوم لمن تُنسب إليه تلك الحُرمة ، ولذلك قال لهم صالح : ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ ؛ لأنّه إذا مسّها أحد بسوء عن رضى من البَقيّة ، فقد دلُّوا على أنّهم خلعوا حرمة الله تعالى ، وحَنِقُوا على رسوله – عليه السّلام – . [٧] إن هذه الناقة معجزة ربانية ظهرت على يد نبي الله صالح – عليه السلام – جواباً على طلب قومه لها ، قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا

---

(١) سورة القمر ، من الآية (٢٧) .
(٢) ينظر: تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا : (٤٤٧/٨) ، والتحرير والتنوير لابن عاشور : (٢١٩/٨) .
(٣) سورة هود ، الآية (٦٤) .
(٤) سورة الشعراء ، الآية (١٥٥-١٥٦) .
(٥) سورة الشمس ، الآية (١٣) .
(٦) ينظر : البحر المحيط لأبي حيان : (٩٥/٥) ، وارشاد العقل السليم لأبي السعود : (٢٤٢/٣) .
(٧) التحرير والتنوير لابن عاشور : (٨/ ٢١٩) .

ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴾ [١] فهي آية دالة مضيئة نيّرة على صالح (عليه السلام) وعلى قدرة الله ، وهي تعيش في النّاس، وتتمشّى بينهم، يمرّون بها مصبحين وممسين ، بين سمعهم وبصرهم . [٢]

وفي قوله : ﴿ مُبۡصِرَةٗ ﴾ فيه وجهان :

الأول : مضيئة ، قال تعالى : ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾ [٣] أي مضيئا.

الثاني: ذات إبصار ، أي : فيها إبصار لمن تأملها ، يبصر بها رشده ، ويستدل بها على صدق ذلك الرسول . [٤]

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية بما أخرجه أحمد والنسائي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما – قَالَ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنْ يَجْعَلَ الصَّفَا ذَهَبًا ، وَأَنْ يُنَحِّيَ عَنْهُمُ الْجِبَالَ فَيَزْرَعُونَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنْ شِئْتَ أَنْ تَسْتَأْنِيَ بِهِمْ لَعَلَّنَا نَجْتَبِي مِنْهُمْ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تُؤْتِيَهُمُ الَّذِي سَأَلُوا، فَإِنْ كَفَرُوا أُهْلِكُوا كَمَا أُهْلِكَ مَنْ قَبْلَهُمْ، قَالَ: ((لَا، بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ))، فَأَنْزَلَ اللَّهُ – عَزَّ وَجَلَّ – هذه الآية . [٥]

وروى الامام أحمد والحاكم عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– ، قَالَ: لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِالْحِجْرِ قَالَ : ((لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ، فَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ فَكَانَتْ يَعْنِي النَّاقَةَ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، فَعَقَرُوهَا، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ، فَأَهْمَدَ اللَّهُ مَنْ تَحْتَ السَّمَاءِ مِنْهُمْ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا، كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ)) قِيلَ: مَنْ هُوَ؟

---

(١) سورة الاسراء ، الآية (٥٩) .

(٢) ينظر : التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم يونس الخطيب: (٥٠٩/٨) .

(٣) سورة يونس ، من الآية (٦٧) .

(٤) ينظر : التفسير الكبير للرازي : (٢٠/ ٣٥٩) .

(٥) أسباب نزول القرآن للنيسابوري :(ص: ٢٨٨) ، والحديث أخرجه النسائي ، كتاب التفسير – سورة الاسراء : (١٠/ ١٥١) ،برقم (١١٢٢٦)، (١١٢٢٦)، وأحمد في مسنده : (٤/ ١٧٣) ، برقم (٢٣٣٣) ، قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

قَالَ: ((أَبُو رِغَالٍ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ)) . [١] إن قوم ثمود لم يستمعوا الى تحذير نبي الله صالح – عليه السلام – وملّوا هذه القسمة ، ولم يرتضوها ، وقابلوها بالطغيان والعصيان ، وعزموا على عقر الناقة ، فنادوا صاحبهم الجريء في الباطل ، وكان اشقى قومه ، واسمه قُدار بن سالف ، وهو أحد التسعة الرهط المفسدين في المدينة ، الذين ذكروا في سورة النمل : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[٢] وهو الذي ذُكر في سورة الشمس ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ ليتولى أمر عقرها وروى البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ زَمْعَةَ، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ، فَذَكَرَ النَّاقَةَ، وَذَكَرَ الَّذِي عَقَرَهَا، فَقَالَ: ((إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا: انْبَعَثَ بِهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ)) . [٣]

والعقر : هو جرح البعير في يديه ليبرك على الارض من الألم ، فينحر في لبّته ، فالعقر كناية مشهورة عن النحر لتلازمهما . [٤]

وفي عقر الناقة ذكر الله سبحانه وتعالى في كل سورة حديثاً ، فقال عزو جل : ﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾[٥] فأضاف العقر ها هنا الى واحد وفي آيات أخرى أضافه الى الجماعة في قوله :﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ [٦] وفي قوله : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴾ [٧] وفي قوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده : (٢٢/ ٦٦) ، برقم (١٤١٦٠) ، والحاكم ، كتاب التفسير–تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَعْرَافِ : (٢/ ٣٥١) ، برقم (٣٢٤٨) ، قال الحاكم : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ .

(٢) سورة النمل ، الآية (٤٨) .

(٣) ينظر : التفسير الواضح للحجازي : (٥٧٤/٣) ، والحديث أخرجه البخاري ، كتاب التفسير– سورة وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا : (٦/ ٢١٠) ، برقم (٤٩٤٢) ،ومسلم ،كتاب الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا– بَابُ النَّارُ يَدْخُلُهَا الْجَبَّارُونَ وَالْجَنَّةُ يَدْخُلُهَا الضُّعَفَاءُ : (٤/ ٢١٩١)، برقم(٢٨٥٥) .

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور : (٣٧٤/٣٠) .

(٥) سورة القمر ، الآية (٢٩) .

(٦) سورة الاعراف ، من الآية (٧٧) .

(٧) سورة الشعراء ، من الآية (١٥٧) .

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [١] فيكون ظاهر الآيات التناقض من حيث ذكر الجماعة ، والحقيقة أنه لا تعارض ولا تناقض ولا اختلاف ؛ لأن المقصود أن القوم قد اتفقوا على هذا القتل للناقة ،فنادوا واحداً منهم لتنفيذه وهم له مؤيدون، فصاروا كأنهم جميعاً عقروها لرضاهم بفعله . [٢]

وقد بين تعالى أنهم عقروا الناقة فجاءهم العذاب المستأصل وذكر ذلك في آيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [٣]وقوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾[٥]

روي أن نبيهم صالح أنظرهم فقال : ﴿ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [٦] ، ، فتصبحون في اليوم الأول وجوهكم مصفرة ، وفي اليوم الثاني محمرة ، وفي اليوم الثالث مسودة فكانت كما قال ، وأتاهم العذاب في اليوم الرابع ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾[٧][٨] قد يتعجب سائل فيسأل: كيف يهلك قوم من أجل قتل ناقة ؟ والجواب: أن المعادلة والمساواة لا يصح أن تكون هي أساس الحكم هنا، لأن تواطؤ قبيلة ثمود وأمرهم أشقاها بعقر الناقة دليل على الإصرار على الكفر، ودليل على رفض دعوة الأنبياء والمرسلين ؛

---

(١) سورة الشمس ، من الآية (١٤) .
(٢) ينظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي: (٩/ ٤٥٣) ، والتفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي : (١٤/ ١١٢) .
(٣) سورة الاعراف ، الآية (٧٧-٧٨) .
(٤) سورة الشعراء ، الآية (١٥٧-١٥٨) .
(٥) سورة الشمس ، الآية (١٤-١٥) .
(٦) سورة هود ، من الآية (٦٥) .
(٧) سورة هود ، من الآية (٦٦) .
(٨) ينظر : لباب التأويل للخازن : (٤٩٢/٢) .

لأن هذه الناقة هي مؤيدة لصدق الأنبياء ، فيكون عقر الناقة موجباً للعذاب ؛ ليدرك البشر أن الحقّ والخير في دعوة الأنبياء، ولا يصلح لأحد الوقوف أمامها وتحدّيها. (١)

المطلب الثاني

ثعبان سيدنا موسى (عليه السلام)

الثعبان : الحية الضخم الطويل الذكر خاصة ، وقيل : كل حية ثعبان ، والجمع الثعابين . (٢)

والحَيَّةُ : تكون للذَكَر والأنثى، وإنّما دخلتْه الهاء ؛ لأنّه واحدٌ من جنسٍ، كبَطّةٍ ودجاجةٍ، واشتقاق الحيَّةِ من الحيَاةِ، وَيُقَال هِيَ فِي أصل الْبناء حَيْوَة فأُدْغِمت الْيَاء فِي الْوَاو، وجُعلتا يَاء شَدِيدَة . (٣)

وهما من الزواحف وهي طائفة من الفقاريات ، الباردات الدم ، تتنفس الهواء .

والثعبان : اسم عام لكل حيوان من مرتبة الثعابين، رتبة الحرشفيات من الزواحف ، يتميز بجسمه الطويل يزحف به على سطح الارض في حركات تموجية ، ويوجد منها ما يقرب من ثلاثة آلاف نوع في مختلف أنحاء العالم، وهى أبغض الحيوانات إلى قلوب الناس ، وأقدرها على بث الرعب والفزع في نفوسهم .

كما أن الحيات جمع حية ، رتبة من الزواحف منها أنواع كثيرة: كالثعبان، والأفعى، والصّل، والأرقم، والأبتر، والشجاع، وذو الطّفيتين، والحنش، والجنّان . (٤) ومن طباع الحيوان أن الحية تعيش الف سنة ، وهي في كل سنة تسلخ جلدها ، وقالوا: فلان أسمع من حية ، وأعدى من حية ، وهو من العدو ؛ لأنها تسرع إلى جحرها إذ أراعها شيء . (٥)

---

(١) ينظر : التفسير الوسيط للزحيلي : (٢/ ١٠٥٨) .
(٢) المحكم والمحيط الاعظم لابن سيده : (٩٦/٢) .
(٣) ينظر : تهذيب اللغة للأزهري : (٥/ ١٨٧) ، والصحاح للجوهري : (٦/ ٢٣٢٤) .
(٤) ينظر : موسوعة الطير والحيوان : (ص: ٢٠٣-٢٠٥) .
(٥) حياة الحيوان الكبرى للدميري : (١/ ٣٨٩،٣٩٩) .

روى البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: ((إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ، كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا)) . (١)

وأما مسألة قتل الحيات ، فيقول الامام النووي – رحمه الله – : قال المازري : لا تقتل حَيَّاتُ مَدِينَةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلا بإنذارها كَمَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ ، فَإِذَا أَنْذَرَهَا وَلَمْ تَنْصَرِفْ قَتَلَهَا ، وَأَمَّا حَيَّاتُ غَيْرِ الْمَدِينَةِ فِي جميع الْأَرْضِ وَالْبُيُوتِ وَالدُّورِ فَيُنْدَبُ قَتْلُهَا مِنْ غَيْرِ إِنْذَارٍ لِعُمُومِ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ . (٢)

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (٣)

موسى – عليه السلام– : نبي الله ورسوله الى بني اسرائيل ، وفرعون : لقب لملوك مصر القدماء ، كقيصر في الروم ، وكسرى في فارس ، والنجاشي في الحبشة . (٤)

لقد أيد الله تبارك وتعالى الرسل عليهم الصلاة والسلام بمعجزات دلت على صدقهم فوجب تصديقهم ، وسميت المعجزة معجزة ؛ لأن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها وهي على ضربين، منها ما هو على نوع قدرة البشر ولكن عجزوا عنه فعجزهم عنه دلّ على أنه من فعل الله ، ودل على صدق النبي – صلى الله عليه وسلم – ، ومنها ما هو خارج عن قدرة البشر كإحياء الموتى ، وقلب العصا حية ، وإخراج ناقة من صخرة ، وكلام الشجر والجماد والحيوان ، وغير ذلك من المعجزات التي عجز البشر عن الاتيان بمثلها ، فإذا أتى

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل المدينة– باب الإيمان يأرز إلى المدينة : (٣/ ٢٧) ، برقم (١٨٧٦) ، ومسلم ، كتاب الايمان – بَابُ بَيَانِ أَنَّ الْإِسْلَامِ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، وَأَنَّهُ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ : (١/ ١٣١) ، برقم (١٤٧) .

(٢) شرح النووي على مسلم : (١٤/ ٢٣٠) .

(٣) سورة الاعراف ، الآية (١٠٤–١٠٧) .

(٤) ينظر : تفسير المراغي : (٢١/٩) .

النبـي بشـيء مـن تلـك المعجـزات الخارقـة للعـادات علـم أن ذلـك مـن عنـد الله ، وأن الله عـز وجـل هـو الـذي أظهرها على يد نبيه لتكون حجة على صدقه فيما يخبر به عن الله عز وجل . (١)

ومن المعجزات التي أيد الله تبارك وتعالى بها سيدنا موسى – عليه السلام – هي عصاه العجيبة التي تتحول الى حية تسعى والى ثعبان مبين ، لتحق الحق وتبطل الباطل ، وتخرس الالسنة ، وتثبت الرسالة ، وهي تفوق كل ما عرف من فنون السحر الذي كان شائعاً عند أهل مصر ، فالله تعالى يجعل معجزة كل نبي من جنس ما كان غالبا على أهل ذلك الزمان فلما كان السحر غالباً على أهل زمان موسى – عليه السلام – كانت معجزته شبيهة بالسحر ، وإن كان مخالفاً للسحر في الحقيقة ، ولما كان الطب غالباً على أهل زمان عيسى – عليه السلام – كانت معجزته من جنس الطب ، ولما كانت الفصاحة غالبة على أهل زمان النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – لا جرم كانت معجزته من جنس الفصاحة . (٢)

واختلفوا في هذه العَصَا، فقال الحسن: كانت عَصَاً أخذها من بعض الأشجار ، وقيل : كانت من آس الجَنّة طولها عشرة أَذْرُع على طول موسى، ولها شُعْبَتَان تَتَّقِدَان في الظلمة، والذي ينبغي أن يقال: إنها كانت بمقدار يصحّ أن يتوكّأ عليها، وأن تنقلب حَيَّةً عظيمة، ولا تكون كذلك الا ولها قدر من الطول والغلظ ، وما زاد على ذلك لا دلالة عليه . (٣)

وقد وصف القرآن الكريم عصا موسى – عليه السلام – بثلاثة أوصاف ، وكل وصف جاء مناسباً لسياق السورة ، وللموقف الذي القى موسى فيه العصا ، وهي كالآتي :

الموقف الأول : عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يدربه على تلقي النبوة وتكاليفها ، فأمره بالقاء العصا في الوادي المقدس : ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ (٤) وفي موضع آخر : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي

(١) ينظر : لباب التأويل للخازن : (٢/ ٢٣٤) .
(٢) ينظر : التفسير الكبير للرازي : (١٤/ ٣٣٣) .
(٣) ينظر : اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي : (٢/ ١٠٩) .
(٤) سورة طه ، الآية (٢٠-٢١) .

لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (١) وفـي موضـــع آخـــر : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ (٢)

والجانّ : هي الحية الصغيرة الخفيفة الجسم ، وقد شبهها تعالى بالجانّ ولم يقل إنه في نفسه جانّ ، فالتشبيه من حيث الاهتزاز لا من حيث المقدار ؛ فلما رأى موسى ذلك الامر العجيب الهائل ملكه من الفزع والنفار ما يملك البشر عند الأهوال والمخاوف ،فنهاه الله تعالى عن أن يخاف وأمره بالإقدام على أخذ العصا، وقيل : لما قال له ربه لا تخف بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها ، فأراد الله سبحانه وتعالى في هذا الموقف أن يريه قدرته سبحانه ، ليكون واثقاً مطمئناً اذا القاها عند فرعون.(٣)

وفي قوله : ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ فهنا يعطيه القضية التي يجب أن تصاحبه في كل تحركاته في دعوته ، فليس التأمين بوقت محدد ، إنما هي قضية مستمرة ؛ لأنه في معية الله ، ومن كان في معية الله لا يخاف فأراد الله تعالى لموسى أن يكون على ثقة من نصر الله وتأييده في جولته مع فرعون ، فلذلك قال موسى بعد ذلك لقومه عندما لحقهم فرعون وقالوا : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾(٤) قال لهم موسى : ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ . (٥)(٦)

الموقف الثاني : عندما أمره الله تعالى بالذهاب الى فرعون ، وقد سأل موسى – عليه السلام – ربه أن يعينه بأخيه هارون ، فلما ذهبا وبلغا فرعون ما أُرسلا به من دعوته الى الله وحده لا شريك له ، وأن يطلق بني اسرائيل من أسره ، وأن يعتقهم من رقه وقهره ، ويدعهم يذهبون الى الارض المقدسة موطن آبائهم ،

---

(١) سورة النمل ، الآية (١٠) .
(٢) سورة القصص ، الآية (٣١) .
(٣) ينظر : التفسير الكبير للرازي : (٥٩٤/٢٤) ، والبحر المحيط لأبي حيان : (٣٢٤/٧) .
(٤) سورة الشعراء ، الآية (٦١) .
(٥) سورة الشعراء ، الآية (٦٢) .
(٦) ينظر : تفسير الشعراوي : (١٠٩١٦/١٨) .

فطلب فرعون الدليل المادي على صدق ما جاء به من الله تعالى ، فألقى موسى عصاه أمام فرعون وخاصته فاذا هي ثعبان مبين يفغر فاه حتى ليكاد يبتلع فرعون ومن حوله ، وهكذا تقع المعجزة ، وتكون المفاجأة ، ولم يذكر القرآن ما وقع في نفس فرعون من فزع وذعر، بل ترك ذلك لتصورات الناس، يأخذ كل إنسان ما يقدر عليه الخيال من الصور المرعبة المفزعة، لهذا الهول الذي وقع . (١)

والثعبان : مشتق من ثَعَبْتَ بالمكان فَجَّرْتَهُ بالماء ، وَالْمَثْعَبُ موضع انْفِجَارِ الْمَاءِ لِأَنَّ الثُّعْبَانَ يَجْرِي كَالْمَاءِ عند الِانْفِجَارِ. (٢)

وقوله تعالى :﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ فإذا للمفاجأة ، وهي حدوث الحادث من غير ترقب ، وهو الذي أذهل فرعون ، و﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي : ظاهر أمره لا يشك في كونه ثعباناً ، فهو إشارة الى أن الصيرورة حقيقية لا تخيلية ، واختيار الجملة الاسمية للدلالة على كمال سرعة الإنقلاب ، واثبات وصف الثعبانية فيها كأنها في الاصل كذلك . (٣)

وفي كون الثعبان مبيناً وجوه :

الأول: أنه تميز وتبين ذلك عما عملته السحرة من التمويه والتلبيس ، وبذلك تتميز معجزات الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – على تمويه السحرة وتخييلهم .

الثاني: أنهم شاهدوا العصا قد انقلبت حية ولم يشتبه ذلك عليهم ؛ فذلك قال ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أي بيّن.

الثالث: إن ذلك الثعبان لما كان معجزة لموسى – عليه الصلاة والسلام – كان من أعظم الآيات التي أبانت صدقه . (٤)

---

(١) ينظر : التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم يونس الخطيب : (٥/ ٤٥٠) .
(٢) البحر المحيط لأبي حيان : (٥/ ١١٢) .
(٣) روح المعاني للألوسي : (١٩/٥) .
(٤) ينظر : لباب التأويل للخازن : (٢/ ٢٣٣) .

فإن قيل : كيف ذكرت هذه المعجزة بألفاظ مختلفة : الحية ، والجانّ ، والثعبان ؟ فأجيب : بأن الحية : اسم جنس يقع على الذكر والأنثى ، والصغير والكبير ، وأمّا الثعبان والجان فبينهما تناف ؛ لأنّ الثعبان هو العظيم من الحيات ، والجانّ الدقيق . وفي ذلك وجهان :

أحدهما : أنها كانت وقت انقلابها حيه ، تنقلب حية صفراء دقيقة ثم تتورّم ، ويتزايد جرمها حتى تصير ثعباناً ، فأريد بالجانّ أوّل حالها ، وبالثعبان مآلها .

الثاني : أنها كانت في عظم الثعبان ، وسرعة الجانّ . (١)

وقيل : لأنها جمعت كل هذه الصفات ، فهي في خفة حركتها كأنها جانّ ، وفي شكلها المرعب كأنها حية، وفي التلوّي كأنها ثعبان . (٢)

الموقف الثالث : عندما شكك فرعون بمعجزة موسى – عليه السلام – وعدّها من قبيل السحر ، وقد اشتهر أهل مصر بالسحر وكان فناً من الفنون التي يتعلمها قدماء المصريين في معاهد خاصة لهم ، فبعث فرعون في مملكته ، فلم يترك ساحراً الا وأتى به ووعدهم بالأجر والعطاء ، وأن يجعلهم من المقربين إن كانوا هم الغالبين . (٣) واختلف الناس في عدد السحرة على أقوال كثيرة ليس لها سند يوقف عنده ، والحاصل من ذلك أنهم جمع عظيم . (٤) وفي هذا دلالة على أن فرعون المدعي للألوهية كان عبداً ذليلاً مهيناً عاجزاً ، وإلا لما احتاج إلى الاستعانة بالسحرة لدفع موسى – عليه السلام – وتدل أيضا على أن السحرة ما كانوا قادرين على قلب الأعيان وإلا لما احتاجوا إلى طلب الأجر والمال من فرعون ؛ لأنهم لو قدروا على قلب الأعيان فلم لم يقلبوا التراب ذهباً ، ولم لم يجعلوا أنفسهم ملوك العالم ورؤساء الدنيا ، فلينتبه الإنسان لهذه الدقائق ، ولا يغتر بكلمات أهل الأباطيل والأكاذيب والزور . (٥)

---

(١) ينظر : الكشاف للزمخشري : (٥٨/٣) ، والتفسير الكبير للرازي : (٢٥/٢٢) .
(٢) تفسير الشعراوي : (١٧/ ١٠٥٦٢) .
(٣) ينظر : زهرة التفاسير لأبي زهرة : (٦/ ٢٩٢١) .
(٤) الجواهر الحسان للثعالبي : (٦٣/٣) .
(٥) ينظر : التفسير الكبير للرازي : (١٤/ ٣٣٤) .

جمعت السحرة في موعد يوم معلوم هو يوم الزينة ، وهو يوم عيد شهير عندهم ، وكان السحرة قد أتوا بما في وسعهم من التمويه والخداع والحيل ، فألقوا حبالهم وعصيهم فـ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴾ (١) ، وذلك أنهم ألقوا حبالا غلاظا ، وخشبا طوالا ، ويقال: إنهم طلوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا داخل تلك العصي زئبقا أيضا ، وألقوها على الأرض فلما أثر حر الشمس فيها تحركت والتوت بعضها على بعض ، حتى تخيل للناس أنها حيات . (٢)

ويقال: إن الأرض كان سعتها ميلاً في ميل ، فصارت كلها حيات وأفاعي ففزع الناس من ذلك ، وأوجس في نفسه خيفة موسى ، وهذه الخيفة لم تحصل لموسى لأجل سحرهم ؛ لأنه كان على ثقة من الله تعالى ، وعلى ثقة أن ما جاءوا به هو السحر وأنَّ الله مبطله ، وإنما كان خوفه لأجل فزع الناس مما رأوه من أمر تلك الحيات ، فخاف موسى – عليه السلام – أن يتفرّقوا قبل ظهور معجزته . (٣)

قال تعالى : ﴿ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩ ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧ ﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ٤٥ ﴾ (٦)

وفي قوله : ﴿ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْ ﴾ انما أبهمها تعظيماً وتفخيماً ، وجاز أن يكون الابهام للتصغير ، أي : وألق العويد الفريد الصغير الجرم الذي بيدك ، فانه بقدرة الله تعالى ﴿ تَلۡقَفُ ﴾ على وحدته

---

(١) سورة الاعراف ، من الآية (١١٦) .
(٢) ينظر : لباب التأويل للخازن : (٢/ ٢٣٦) .
(٣) ينظر : السراج المنير للخطيب الشربيني : (٥٠٢/١) .
(٤) سورة طه ، الآية (٦٧-٦٩) .
(٥) سورة الاعراف ، الآية (١١٧) .
(٦) سورة الشعراء ، الآية (٤٥) .

وكثرتها ، وصغره وعظمها . [١] فألقى موسى عصاه فصارت حيةً عظيمة ، فإذا هي الآية التي جاء بها موسى على صدق دعوته ، وإنما حُذف للإشعار بمسارعة موسى – عليه السلام – إلى الإلقاء ، وبغاية سرعةِ الانقلاب ، كأن لقْفَها لما يأفكون قد حصل متصلاً بالأمر بالإلقاء ، وصيغةُ المضارعِ لاستحضار صورةِ اللقْفِ . [٢] وقوله : ﴿ تَلْقَفُ ﴾ أي : تلتقم التقاماً حقيقياً شديداً سريعاً جداً بما دل عليه حذف التاء ،[٣] وقرأها أكثر السبعة بفتح اللام وتشديد القاف ، والحجة : أنه أراد تتلقف فخزل إحدى التاءين ، وبقّى القاف على تشديدها، والحجة لمن أسكن وخفف: أنه أخذه من لقف يلقف، ومعناهما: تلتقم، وتلتهم . [٤]

وقوله : ﴿ يَأْفِكُونَ ﴾ أي يصرفونه عن وجهه وحقيقته التي هي الجمادية بحيلهم وتخييلهم على ظن أنه حيات تسعى ،[٥] فكانت آية موسى – عليه السلام – تلتقم حبالهم وعصيهم واحداً واحداً حتى ابتلعت كل ما وجدته في حلبة المبارزة . [٦] فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه ، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى – عليه السلام – ليس من قبيل السحر والحيل ، وأنه حق لا مرية فيه ، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون ، فعند ذلك وقعوا سجدا لله وقالوا: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [٧] ولهذا قال ابن عباس – رضي الله عنهما– : كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة . [٨] وانتهت هذه المواجهة بانتصار الحق على الباطل فقد اراد فرعون وقومه أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، فكان تدبيره فوق كل تدبير، وكان الفوز لموسى –

---

(١) فتحُ البيان في مقاصد القرآن لصديق خان : (٢٥٢/٨) .
(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم لأبي السعود : (٣/ ٢٦٠) .
(٣) ينظر : نظم الدرر للبقاعي : (٣/ ٢٦٠) .
(٤) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه : (١٦١/١) .
(٥) نظم الدرر للبقاعي : (٥/ ٢٦٠) .
(٦) ينظر : معالم التنزيل للبغوي : (٢٦٥/٣) .
(٧) سورة طه ، من الآية (٧٠) .
(٨) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : (٥/ ٣٠٣) .

عليه السّلام – في صميم الحال التي توقع فيها فرعون وقومه إنزال الهزيمة الساحقة بموسى – عليه السّلام – ، ولكن قد يؤتى الحذر من مأمنه، وهكذا حدث . (١)

المطلب الثالث

الهدهد والنملة مع سيدنا سليمان – عليه السلام –

تحدث القرآن الكريم عما أنعم الله سبحانه وتعالى على عبده سليمان من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، وما جمع له من سعادة الدنيا والاخرة ، فكان نبياً وملكاً ، وقد سخر الله له الانس والجنّ والطير ، فتحدث مع الهدهد ، وسمع كلام النمل وفهمه ، وغير ذلك من المعجزات التي فضله الله بها على كثير من خلقه ، وحتى أن الله سبحانه وتعالى سخّر لع دابّة الارض وهي الأرَضَة ، التي دلت الجنّ على موته ، فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ (٢) فدحضت ادعاء الجنّ علم الغيب ، الذي لا يعلمه إلا إلا الله ، ومن زعم من الجهلة أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان – عليه السلام – فهو قول بلا علم ، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ، إذ كلهم يفهم كلام الحيوان ، فليس الأمر كما زعموا ، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت الى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال ، ولكن الله سبحانه قد أفهم سليمان – عليه السلام – ما يتخاطب به الطيور في الهواء ، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف اصنافها ، ولهذا قال : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (٣) . (٤)

---

(١) ينظر : التفسير الوسيط للزحيلي : (٢/ ١٨٢٦) .

(٢) سورة سبأ ، الآية (١٤) .

(٣) سورة النمل ، الآية (١٦) .

(٤) ينظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : (١٨٢/٦) .

ولقد كان لحديث النملة والهدهد مع سيدنا سليمان – عليه السلام – موقفاً واضحاً يتبين فيه دور الحيوان في نصرة الحق ، وهذا ما سنتعرفه من خلال الفرعين الآتيين :

الفرع الأول : موقف النملة :

النَمْلُ: معروفٌ، الواحدة نَمْلَةٌ ، والجمع نِمَال ، وأرض نَمِلَةٌ كثيرةُ النَّمْل ، وطعامٌ مَنْمُول : اذا أصابه النَّمْل ، ويقال : رجلٌ نَمِلٌ : أي نَمَّامٌ . (١)

وسميت النملة نملة لتنملها ، وهو كثرة حركتها، وقلة قرارها ، والنمل لا يتزاوج ولا يتناكح إنما يسقط منه شيء حقير في الأرض فينمو حتى يصير بيظاً حتى يتكون منه، والبيض كله بالضاد المعجمة الساقطة إلا بيظ النمل، فإنه بالظاء المشالة .

والنمل عظيم الحيلة في طلب الرزق، فإذا وجد شيئا أنذر الباقين ليأتوا إليه، ومن طبعه أنه يحتكر قوته من زمن الصيف لزمن الشتاء، وله في الاحتكار من الحيل ما أنه إذ احتكر ما يخاف إنباته قسمه نصفين، ما خلا الكسفرة فإنه يقسمها أرباعاً ، لما ألهم من أن كل نصف منها ينبت، وإذا خاف العفن على الحب أخرجه إلى ظاهر الأرض ونشره ، وأكثر ما يفعل ذلك ليلا في ضوء القمر، ومن عجائبه أنه يتخذ القرى تحت الأرض، ويبني بيوته دهاليز وغرفات وطبقات معلقة، يملؤها حبوباً وذخائر للشتاء . (٢)

وليس شيء من الحيوان يقوى على حمل ما يكون ضعف وزنه مراراً غيرها، فهي على هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوان، حتّى ربّما كانت في ذلك أحزم من كثير من الناس . (٣)

وكنية النمل: أبو مشغول، والنملة: أم نوبة، وأم مازن، وفى الأمثال: (ما عسى أن يبلغ عضّ النمل) يضرب لمن لا يبالى بوعيده ، وقالوا: (أحرص من نملة) ، و (أروى من نملة) لأنها تكون في الفلوات، فلا تشرب ماء .

---

(١) ينظر : الصحاح للجوهري : (١٨٣٦/٥) ، والمحكم والمحيط الاعظم لابن سيده : (٣٨٩/١٠) .
(٢) ينظر : حياة الحيوان الكبرى للدميري : (٤٩٧/٢-٤٩٨) .
(٣) ينظر : الحيوان للجاحظ : (٤/ ٢٦٣) .

ويحرم أكل النمل لورود النهى عن قتله ، وكل ما يؤذى الإنسان من الهوام والدواب يباح له دفعه عنه بضرب أو قتل ، فعن أبي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – يَقُولُ : ((قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ)) [١] وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – ، قَال : قال رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : ((إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ)) [٢] . [٣]

والنملة تعرف ربها وتدين بالعبودية له ، فقد روى الامام أحمد في كتاب الزهد قال : خَرَجَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِالنَّاسِ يَسْتَسْقِي، فَمَرَّ عَلَى نَمْلَةٍ مُسْتَلْقِيَةٍ عَلَى قَفَاهَا رَافِعَةً قَوَائِمَهَا فِي السَّمَاءِ، وَهِيَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَنَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِكَ، لَيْسَ بِنَا غِنًى عَنْ رِزْقِكَ؛ فَإِمَّا أَنْ تُسْقِيَنَا، وَإِمَّا أَنْ تُهْلِكَنَا، فَقَالَ سُلَيْمَانُ لِلنَّاسِ: ارْجِعُوا، فَقَدْ سُقِيتُمْ بِدَعْوَةِ غَيْرِكُمْ . [٤]

قال تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [٥]

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد – حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ : (٤/٧٥) ، برقم (٣٠١٩).

(٢) أخرجه الترمذي ، أبواب العلم – بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الفِقْهِ عَلَى العِبَادَةِ : (٤/ ٣٤٧) ، برقم (٢٦٨٥) ، قال الترمذي : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ .

(٣) ينظر : موسوعة الطير والحيوان : (١/٤١٢-٤١٥) .

(٤) الزهد ، لأحمد بن حنبل : (ص: ٧٣) .

(٥) سورة النمل ، الآية (١٧-١٩) .

والمعنى : وجمع لسليمان – عليه السلام – عساكره ووجوه مملكته من الجنّ والانس والطير ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي : يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا، وأصل الوزع في كلام العرب الكفّ والمنع . (١)

فهؤلاء الجنود مع كثرتهم يسيرون بنظام وترتيب فهناك من يزعهم عن الفوضى والاضطراب ، فلا يتجاوز أحدهم مكانه أو وظيفته ، ولا يقدر أحد على أن يخرج عن هذا السلطان الذي يزع هذه الرعايا ويأخذ من يخالف منها بالعقاب . (٢)

حتى اذا أشرفوا على وادي النمل ، فإن قيل : لم عدّي أَتَوْا بعلى في قوله : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ ؟ فجوابه من وجهين : الاول : أن إتيانهم كان من فوق ، فأتى بحرف الاستعلاء ، والثاني : أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره ، (٣) قال البقاعي – رحمه الله – : (فإنهم لكثرتهم إذا صاروا في الوادي استعلوا عليه فطبقوه فلم يدعوا منه موضع شبر خالياً) (٤)

وواد النمل يجوز أن يكون مراداً به الجنس ؛ لأن للنمل شقوقاً ومسالك هي بالنسبة إليها كالأودية للساكنين من الناس ، وربما قصد موضعاً مشتهراً بالنمل غلب عليه هذا المضاف ، كما سمي وادي السباع ، وقيل غير ذلك ، وكله غير ظاهر من سياق الآية . (٥)وقيل: هذه النملة هي أنثى، بدليل تأنيث الفعل المسند إليها، إليها، وتعقب هذا الرأي أبو حيان بأن لحوق التاء في (قالت) لا يدل على أن النملة مؤنث ، بل يصح أن يقال في المذكر قالت، لأن نملة وإن كانت بالتاء فهي مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث بتذكير الفعل، ولا بتأنيثه بل يتميز بالإخبار عنه بأنه ذكر أو أنثى . (٦)

---

(١) الكشف والبيان للثعلبي : (٧/ ١٩٥) .
(٢) ينظر : التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي : (٣١٤/١٠) ، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم يونس الخطيب : (٢٢٩/١٠) .
(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري : (٣/ ٣٥٥) ، والتفسير الكبير للرازي : (٥٤٦/٢٤) .
(٤) نظم الدرر للبقاعي : (١٤/ ١٤٣) .
(٥) ينظر : التحرير والتنوير لابن عاشور : (١٩/ ٢٤٠) .
(٦) ينظر : البحر المحيط لأبي حيان : (٨/ ٢١٩) ، وفتح القدير للشوكاني : (٤/ ١٥١) .

والحقيقة أن الانشغال بالبحث عن معرفة النملة وهل هي ذكر أو أنثى ، وعن اسمها وأسم الوادي ، فهذا مما لا طائل من البحث فيه ولا خبر في ذلك عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يصار اليه ، وحسبنا ما أخبرنا الله تعالى به من كلام النملة ، وفهم سليمان – عليه السلام – له وما في ذلك من معان دقيقة ينبغي الوقوف على ما تدل عليه من دروس وعبر . [١]

فقوله : ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ فهذا تصريح بأن النملة تكلمت لكي تحذر جماعتها من خطر قد يدهمهم ، ذلك دليل على أن للنمل لغة يتفاهم بها ، وهذا ما أثبتته الأبحاث العلمية ،[٢] وفي تنكير ﴿نَمْلَةٌ﴾ دلالة على البعضية والعموم ، أي : قالت نملة من هذا النمل ، وهذا يعني أن كل نملة مسؤولة عن جماعة النمل ،[٣] فهذا يدل على التكاتف والتعاون بين أفراد أمة النمل لما قامت به هذه النملة بالنصح والارشاد وأحبت لبني قومها ما تحب لنفسها . قال ابن باديس – رحمه الله – : (هذه نملة وفت لقومها، وأدت نحوهم واجبها!! فكيف بالإنسان العاقل فيما يجب عليه نحو قومه؟! هذه عظة بالغة لمن لا يهتم بأمور قومه، ولا يؤدي الواجب نحوهم، ولمن يرى الخطر داهماً لقومه، فيسكت ويتعامى، ولمن يقود الخطر إليهم ويصبه بيده عليهم. آه ما أحوجنا معشر المسلمين إلى أمثال هذه النملة !) . [٤] قال بعض العلماء : هذه الآية من عجائب القرآن ؛ لأنها بلفظة (يا) نادت (أيها) نبّهت (النّمل) عيّنت (ادخلوا مساكنَكم) نصَّت (لا يحطمنَّكم) حذَّرت (سليمانُ) خصَّت (وجنوده) عمَّت (وهم لا يشعُرون) عذرت . [٥] فالنملة بدأت مخاطبة قومها مخاطبة مخاطبة العقلاء ، وجاءت بلفظ (مساكنكم) ولم تقل بيوتكم أو جحوركم ؛ لأنهم في حالة حركة ، والحركة يقابلها السكون ، فاختارت لفظ المساكن ليسكنوا فيها ، ولم تقل المساكن والجحور وإنما (مساكنكم) لأن لكل نملة مسكنها الخاص الذي تعلم مكانه ، ثم أكدّت بالنداء بقولها (يا أيها النمل) الدال على البعد ، حتى

---

(١) ينظر : البداية والنهاية لابن كثير : (١٩/٢) .
(٢) ينظر : القرآن وإعجازه العلمي محمد اسماعيل ابراهيم : (ص:١٥٥) .
(٣) ينظر: الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم لعلي بن نايف الشحود : (ص:٢) .
(٤) في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير للصنهاجي : (ص:٢٦٣) .
(٥) زاد المسير لابن الجوزي : (٣/ ٣٥٦) .

يسمعوا نداءها، وقالت (سليمان وجنوده) ولم تقل جنود سليمان ؛ حتى ترفع العذر عن سليمان أيضاً ، فلو قالت : جنود سليمان ؛ لكان سليمان غير عالم إذا كان قاصداً أو غير قاصد ، وجاءت بلفظ (سليمان) بدون أي لقب له كالنبي سليمان ؛ للدلالة على أنه مشهور بدون أن يوصف . (١)

وقوله :﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون نهياً فتكون الجملة مستأنفة تكريراً للتحذير من فرط المخافة ، والنهي عن حطم سليمان إياهن كناية عن نهيهن عن التسبب فيه وإهمال الحذر منه ، ويحتمل أن يكون نفياً فتكون الجملة واقعة في جواب الأمر ، فكان لها حكم جواب شرط مقدّر ، فالتقدير : إن تدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان . (٢)

وفي التعبير ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ دون غيره من الألفاظ، دلالة مقصودة على المعنى المراد، فقد ثبت للعلماء أن جسم النملة يحتوي على نسبة كبيرة من الزجاج ، وأنه مغلف بغلاف صلب جداً قابل للتكسر ، فالتحطيم هو اللفظ المناسب للتعبير عن التكسر والتهشم ، وفي هذا اعجازٌ علميٌ من اعجاز القرآن إلى جانب إعجازه البياني، الذي يسمو فوق كل بيان . (٣)

وذكر بعضهم أن النملة بتحذيرها خافت على قومها أن يقعوا في كفران نعمة الله تعالى اذا رأوا جلالة سليمان ، فقصدت حطم القلوب ، وهذا تنبيه على أن مجالسة أرباب الدنيا محذورة . (٤)

وفي هذه الآية دليل على حسن الاحتراز مما يخشى وقوعه ، (٥)وأن من يسير في الطريق لا يلزمه التحرز ، وانما يلزم من في الطريق التحرز . (٦)

---

(١) ينظر : لمسات بيانية في نصوص من التنزيل للدكتور فاضل صالح السامرائي : (ص: ٥٢٠) .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير لابن عاشور : (٢٤٢/١٩) .
(٣) ينظر: الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم لعلي بن نايف الشحود : (ص:٢) .
(٤) ينظر: التفسير الكبير للرازي : (٥٤٩/٢٤) ، وغرائب القرآن للنيسابوري : (٥/ ٣٠٠) .
(٥) ينظر: لطائف الإشارات للقشيري : (٣٠/٣) .
(٦) ينظر: التفسير الكبير للرازي : (٥٤٩/٢٤) .

ونظير قول النملة في جند سليمان : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قول الله تعالى في جند محمد – صلى الله عليه وسلم – : ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (١) التفاتا إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن ، إلا أن المثني على جند سليمان هي النملة بإذن الله تعالى ، والمثني على جند محمد – صلى الله عليه وسلم – هو الله عز وجل بنفسه ، لما لجنود محمد – صلى الله عليه وسلم – من الفضل على جند غيره من الأنبياء ؛ كما لمحمد – صلى الله عليه وسلم – فضل على جميع النبيين صلى الله عليهم وسلم أجمعين . (٢)

وقوله : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ تعجباً من حذرها واهتدائِها إلى تدبير مصالحِها ومصالحِ قومها ، وسروراً بشهرة حالِه وحالِ جنودِه وثناء النملة عليهم بالتقوى والشفقة ، وابتهاجاً بما خصَّه الله تعالى به من إدراك همسِها وفهمِ مُرادِها ؛ (٣) ولذلك أكد التبسم بقوله ﴿ ضَاحِكًا ﴾ ، اذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضاً ، كما يقال : تبسم تبسم الغضبان أو المستهزئين بينما تبسم الضحك انما هو عن سرور . (٤)

وقد تكلم بعض المفسرين في مسألة سماع سليمان – عليه السلام – فقالوا : إن الريح نقلتْ إليه مقالة النملة، وهو ما يزال بعيداً عنها، وهذا الكلام يُقبل لو أن المسألة (ميكانيكا) إنما هي عمل رب ، وقدرة خالق لا يعجزه شيء وينعم بما يشاء . (٥)

فلنتأمل هذا الموقف العظيم من هذه الأمم المسبحة لله ، كيف أجمعت أمرها على الفرار خوفا من الهلاك كما تجتمع على طلب المنافع، وإن أمة لا تصل في تدبيرها والفرار مما يهلكها ويوردها عذاب الله مثلما يفعل هذا الحيوان الأعجم تكون أمة حمقاء تائهة في أودية الضلال، وهى أدنى حالا من الحشرات والديدان . (٦)

---

(١) سورة الفتح ، من الآية (٢٥) .
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : (١٣/ ١٧٠) .
(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم لأبي السعود : (٦/ ٢٧٩) .
(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : (١٣/ ١٧٠) .
(٥) ينظر : تفسير الشعراوي : (١٧/ ١٠٧٦١) .
(٦) ينظر : تفسير المراغي (١٩/ ١٢٩) .

ولقد أخذ سليمان العبرة والعظة ، فيروى أنه لما بلغ وادي النمل حبس جنوده حتى دخل النمل مساكنهم ، وقد استقبل هذه النعمة بالحمد والشكر ، والولاء لله وخفض الجناح لعباد الله ، فهو في أروع مظاهر سلطانه يقف بين يدى أضعف مخلوقات الله ويأخذ منها العبرة والعظة ، ومن هنا يتبين موقفه من صاحب الرأي الآخر ، فلم يكن – عليه السلام – مستبداً ولا غليظاً ، وإن كان نبياً وملكاً ، فهو ينظر الى مخلوقات الله ويقدر رأيها ، ويروى أن رجلاً استوقف المأمون ليسمع منه ، فلم يقف له، فقال: يا أمير المؤمنين ، إن الله استوقف سليمان – عليه السلام – لنملة ليسمع منها، وما أنا عند الله بأحقر من نملة، وما أنت عند الله بأعظم من سليمان! فقال له المأمون: صدقت، ووقف له وسمع له وقضى حاجته . (١)

الفرع الثاني : موقف الهدهد :

الهدهد : بضم الهاءين ، وإسكان الدال المهملة بينهما ، طائرٌ معروف ، وهدهدته صوته . (٢)

وهو طائر معروف ذو خطوط وألوان كثيرة، وهو منتن الريح والبدن من جوهره وذانه ؛ لأنه يبني أفحوصه في الزبل ، وهذا عام في جميع جنسه ، وكنيته أبو الأخبار ، وأبو ثمامة ، وفي المثل : أبصر من هدهد ، ويحرم أكله لنهي النبي – صلى الله عليه وسلم – عن قتله فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما – ، قَالَ : ((نَهَى رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ: النَّمْلَةِ، وَالنَّحْلَةِ، وَالْهُدْهُدِ، وَالصُّرَدِ)) (٣).(٤)

---

(١) ينظر : حياة الحيوان للدميري: (٢/ ٥٠٠) ، والتفسير القرآني للقرآن : (١٠/ ٢٢٥)، ودعوة الرسل لأحمد غلوش : (٤٣١/١) .

(٢) ينظر : تهذيب اللغة للأزهري : (٢٣٢/٥) .

(٣) أخرجه أبو داود ، أبواب النوم – باب في قتل الذَّرِّ : (٧/ ٥٣٩) ، برقم (٥٢٦٧) ، وأحمد في مسنده : (٥/ ١٩٢) ، برقم (٣٠٦٦) ، قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٤) ينظر: حياة الحيوان الكبرى للدميري : (٥١٤/٢) .

قال تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [١]

في الموقف السابق تحدث القرآن الكريم عن موكب سليمان العظيم من الجنّ والانس والطير ، وعن نظامهم وبعدهم عن الفوضى فلا يستطيع أحد منهم الخروج عن هذا السلطان الذي يأخذ من يخالف منهم بالعقاب ، وفي هذا الموقف يتخلف الهدهد الجندي الصغير عن موكب سليمان – عليه السلام – فيتوعده بأشد العذاب . وذكر المفسرون أن سبب تفقد سليمان – عليه السلام – الطير وسؤاله عن الهدهد خاصة من بين الطير ، هو أن الطير كانت تظل سليمان وجنده من الشمس ، فنظر فرأى موضع الهدهد خالياً تصيبه الشمس منه ، فطلبه لهذا ، وروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنّ لبهدهد كان يعرف موضع الماء في الارض ، وكان يبصر الماء فيها كما يبصر في الزجاجة ، وكان يعرف قدر قرب الماء وبعده ، فاحتاج سليمان الى الماء في مسيره فطلب الهدهد لذلك ،[٢] وروى أَن نَافِع بن الْأَزْرَق كَانَ عِنْد ابْن عَبَّاس وهو يذكر هذا ، فقال: يا وصاف انْظُر ما تَقول، فَإِن الصَّبِي منا يضع الفخ ، ويحثو عَلَيْهِ التُّرَاب، فيجئ الهدهد فَيَقَع فِي الفخ. فَقَالَ لَهُ ابْن عَبَّاس : إِن الْقدر يحول دون الْبَصَر . [٣] وقيل : أن هذا التفقد بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك ، والتهمم بكل جزء منها ، وهذا دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته ، والمحافظة عليهم ، فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله ، فكيف بعظام الملك، ويرحم الله عمر بن الخطاب يوم قال : لو أن سخلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب ليسأل عنها عمر. فما ظنك بوال تذهب على يديه البلدان ، ويضيع الرعيان . [٤]

---

(١) سورة النمل ، الآية (٢٠-٢٢) .
(٢) ينظر : جامع البيان للطبري : (٢٤٢/١٩) ، وزاد المسير لابن الجوزي : (١٦٣/٦) ، واللباب لابن عادل الحنبلي : (١٣٥/١٥) .
(٣) ينظر : تفسير القرآن للسمعاني : (٤/ ٨٧) ، ومعالم التنزيل للبغوي : ٤٩٦/٣) .
(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : (١٧٧/١٣-١٧٨) .

وفي قوله :﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾ دليل على أن العذاب على قدر الذنب لا على قدر الجسد ، وعلى جواز تأديب الحيوانات والبهائم بالضرب عند تقصيرها في المشي واسراعها ونحو ذلك.(١)

واستثنى سليمان – عليه السلام – بقوله : ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ وهذا هو اللائق بسليمان – عليه السلام – الذي اشتهر بالعدالة هو وجنوده حتى عند النمل، فلا ينتظر منه مع الهدهد، أو ما دونه أو ما فوقه، إلا أن يكون عادلاً لا يعاجل بالعقوبة قبل ثبوت الجريمة ، ولا يبادر إلى المؤاخذة قبل سماع الحجة . (٢) وأظهر الأقاويل في العذاب الذي أوعده به أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه في الشمس ممعطاً لا يمتنع من النمل ولا من هوام الأرض، وقيل: لأطلينه بالقطران ولأشمسنه ، وقيل : لأفرقن بينه وبين إلفه ، وقيل :غير ذلك ، وقوله : ﴿ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾ أي : لأقطعن حلقه . (٣)

وفي قوله تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ والظاهر أن الضمير في ﴿ فَمَكَثَ ﴾ عائد على الهدهد، ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه، خوفاً من سليمان، وليعلم كيف كان الطير مسخرا له، ولبيان ما أعطي من المعجزة الدالة على نبوته وعلى قدرة الله . (٤) وقوله : ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ الاحاطة هو العلم بالشيء من جميع جهاته ، فقد ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوّة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ، ابتلاءاً له في علمه ، وتنبيهاً على أنّ في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما لم يحط به ، لتتحاقر إليه نفسه ، ويتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفاً له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة،(٥)وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير ، والمتعلم للعالم عندي ما ليس عندك اذا تحقق ذلك وتيقنه . (٦)

---

(١) ينظر : محاسن التأويل للقاسمي : (٤٩٥/٧) .
(٢) ينظر : الإيمان بالقدر للصَّلاَّبي : (ص:٢١٥) .
(٣) ينظر : معالم التنزيل للبغوي : (٤٩٧/٣) .
(٤) ينظر : البحر المحيط لأبي حيان : (٢٢٤/٨) .
(٥) ينظر : الكشاف للزمخشري : (٣/ ٣٦٤) .
(٦) ينظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : (١٨٢/١٣) .

وقوله : ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ فاعلم سليمان مالم يكن يعلمه ، فعبّر بهذا الخبر الخطير والشأن الكبير ؛ لترويج كلامه وترغيبه في الاصغاء الى اعتذاره ، واستمالة قلبه نحو قبوله ، فان النفس للاعتذار المنبئ عن أمر بديع أقبل ، والى تلقي ما لا تعلمه أميل .[١]

وأخذ الهدهد في تفصيل هذا النبأ اليقين الذي جاء به من سبأ [٢] بقوله ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴾[٣]

وفي هذا الجانب عشر قضايا يدركها الهدهد ، ويفصح عنها لنبي الله سليمان – عليه السلام – :

الأولى: إدراكه أنه أحاط بما لم يكن في علم سليمان .

الثانية: معرفته لسبأ بعينها دون غيرها، ومجيئه منها بنبأ يقين لا مرية فيه.

الثالثة: معرفته لتولية المرأة [٤]عليهم ، وإنكاره ذلك عليهم .

الرابعة: إداركه ما أوتيته سبأ من متاع الدنيا من كل شيء.

الخامسة: إدراكه لعرشها العظيم .

السادسة: إدراكه ما هم عليه من السجود للشمس من دون الله.

السابعة: إدراكه أن عبادتهم شرك بالله تعالى.

الثامنة: أن هذا من تزيين الشيطان .

---

(١) ينظر : ارشاد العقل السليم لأبي السعود : (٢٨٠/٦) .

(٢) سبأ : بفتح أوله وثانيه ، وهمز آخره وقصره ، وهي اسم قبيلة من قبائل العرب في اليمين تنتسب الى قحطان ، وكانت مساكنهم بين الشام واليمين يقال لها الآن مأرب ، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال ، وسمي سبأ لأنه أول من سبي السبي ، ولا تزال الآثار في اليمين قائمة الى اليوم . ينظر : معجم البلدان للحموي : (١٨١/٣) ، والبداية والنهاية لابن كثير : (١٥٨/٢) .

(٣) سورة النمل ، الآية (٢٣-٢٦) .

(٤) هي بلقيس بنت السيرح وهو الهدهاد ،وقيل :شراحيل بن ذي جدن بن السيرح بن الحرث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن بن قحطان ،وكان أبوها من أكابر ملوك اليمين لم يخلف غيرها ،وقد آل الأمر اليها فملكوها عليهم .ينظر:البداية والنهاية لابن كثير:(٢٦/٢) .

التاسعة: أن هذا ضلال عن السبيل القويم.

العاشرة: أنهم لا يهتدون . (١)

وقد ألهم الله الحيوانات إلى ما قد يخفى عن بعض العقلاء، فهذا الهدهد بين الهداهد له إلهام خاص يقتضيه تخصصه لهذا الموقف، واتصاله بسليمان – عليه السلام – ، وزمن الأنبياء زمن خرق العوائد، وظهور الآيات ، وقد كان في حسن بيانه، وترتيب أخباره، وبديع تهديه عبارة بالغة لأولي الألباب ، فقد تحصن بالعلم، ونوه بالنبأ المتيقن، وفصل النبأ فشرح حاليها الدنيوية والدينية، وتنقل من تشويق إلى تشويق ، فكان متثبتاً فيما أخبر، بارعاً فيما صور، مستدلاً فيما قرر، وفيما أنكر، بصيراً بكيد الشيطان للإنسان، خبيراً بترتيب الأدلة وحسن الاستنتاج . (٢)

وقيل : الآية : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ هو كلام الهدهد ، وقيل: كلام رب العزة ، وفي إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد ؛ لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السماوات والأرض جلت قدرته ولطف علمه، ولا يكاد تخفى على ذي الفراسة النظار بنور الله مخائل كل مختص بصناعة أو فنّ من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، ولهذا ورد: ما عمل عبد عملا إلا ألقى الله عليه رداء عمله . (٣)

وفي منتهى هذه الآية موضع سجود تلاوة تحقيقاً للعمل بمقتضى قوله : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ . (٤)

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٥) بعد أن ذكر الهدهد معاذيره لتبرئة نفسه ، فإن سليمان لم يؤاخذه بل وضع

---

(١) ينظر : أضواء البيان للشنقيطي : (٨/ ٨) .
(٢) مجالس التذكير لابن باديس : (ص: ٢٧٨) .
(٣) ينظر : الكشاف للزمخشري : (٣/ ٣٦٢) .
(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور : (٢٥٦/١٩) .
(٥) سورة النمل ، الآية (٢٧-٢٨) .

قولـه موضـع التحقيق والاختبـار، وهكذا الأمـم العاقلـة الرشيدة لا يهـان فيهـا الصـغير، ولا يظلـم فيهـا الكبيـر،[١] وهذا الاسلوب دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته ، وأن يتأنى ويتحرى عند الاعتذار قبل أن ينـزل العقوبـة بمـن ظـاهره الخطـأ ، فربمـا كـان صـادقاً فـي اعتـذاره ، وفـي الحـديث : ((وَلَـيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْـهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ)) [٢] . [٣]

وقد أخذ الدرس من الهدهد ، ومن استماع سليمان للهدهد ، فهذا أبو حنيفة – رحمه الله– يتَّعظ بمقالة طفلٍ صغير، حينما رأى الإمام الطفل يلعب بالطين، فقال للطفل: إياك والسقوط في الطين، فقال الغلام الصغير للإمام الكبير: إياك أنت السقوط، لأن سقوط العالِم سقوطُ العالَم، فما كان من أبي حنيفة إلا أن تهتزَّ نفسُه لهذه المقولة، فكان لا يخرِّج فتوى– بعد سماعه هذه المقالة من الطفل الصغير – إلا بعد مدارستها شهراً كاملاً مع تلامذته ، ودخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب الحسن أن يتكلم، فزجره ، وقال: يا صبي ، تتكلم في هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت صبياً، فلست بأصغر من هدهد سليمان ، ولا أنت بأكبر من سليمان – عليه السلام – . [٤]

والى هنا ينتهي دور الهدهد في القصة ، فلم يتعرض القرآن لشيء من رحلة الهدهد الى سبأ وهو يحمل كتاب سليمان الى القوم ، والمهم أن الهدهد بعث سفيراً وأن سفارته كانت موفقة ، حيث جاءت بهم مسلمين في قوله تعالى : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [٥].[٦]

ولقد كان في ارسال كتاب سليمان مع الهدهد لهو وسيلة من وسائل الدعوة التي استعملها الرسل – عليهم الصلاة والسلام – لدعوة الناس الى الله سبحانه وتعالى ، وأمر الهدهد وتكلمه بما يفهمه البشر أمر معجز

---

(١) ينظر : التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي : (٣٢٢٠/١) .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب التوحيد– باب قَوْلِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – : لاَ شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ : (٩/ ١٥١) ، برقم (٧٤١٦) ، ومسلم ، كتاب التوبة – بَابُ غَيْرَةِ اللهِ تَعَالَى وَتَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ : (٤/ ٢١١٤) ، برقم (٢٧٦٠) واللفظ له .

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : (١٨٩/١٣) ، والتفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي : (١٦٧٥/٧) .

(٤) المنهاج النبوي في تربية الأطفال لعلي بن نايف الشحود : (ص: ٦١٥-٦١٦) .

(٥) سورة النمل ، من الآية (٤٤) .

(٦) ينظر : أضواء البيان للشنقيطي : (٨/٨) .

خارق للعادة وهذا الهدهد لم يكن هدهداً من عامة الهداهد وانما هو من خواص سليمان ،ودل على ذلك قوله: ﴿ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾ ولم يقل : مالي لا أرى هدهداً ، فأدخل الالف والام لتعريفه ولقصده بعينه، وحين اراد أن يرسله الى بلقيس حمله كتاباً ، ولم يحمله رسالة شفوية ؛ لأنها لن تطيق ذلك ولن تفهم هدهدته، وقد حصل للنبي – صلى الله عليه وسلم – أن استمع الى الحجر والمنبر والذراع والضب والناقة كرامة من الله لأنبيائه وبرهاناً لرسله . (١)

ولا يَبْعد من الهدهد التهدّي إلى معرفة الله، ووجوب السجود له، وحرمة السجود للشمس، إلهاماً من الله له، كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوانات المعارف اللطيفة، التي لا يكاد العقلاء، الراجحة العقول، يهتدون إليها ، وهذا من أسرار الربوبية، التي سرت في الأشياء، فوحّدَت الله تعالى، ولهجت بحمده . (٢)

إن هذا الطائر الصغير الوديع لم يكن مجرد مكتشف وعالم بما لم يعلم به سليمان وحسب، بل إنه كان داعية إلى الله، وإلى الإيمان به ، فهو ينكر على المشركين شركهم، ويسفه أحلامهم، ويحقر معتقداتهم وما يعبدون من دون الله ، فكانت دعوته سبباً في اسلام أمة كانوا يسجدون للشمس من دون الله . (٣)

وقال عمارة بن علي المذحجي :

ولا تحتقر كبداً ضعيفاً فربما ... تموت الأفاعي من سموم العقارب

فقد هدّ قدماً عرش بلقيس هدهد ... وخرب فأر قبل ذا سد مأرب(٤)

ويا له من درس عظيم يلقيه هذا الطائر الغيور في الدفاع عن الحق ، فقد تكلم ودعا وسعى ، فنال الأمان ، وذكره الرحمن ، فخذوا من الهدهد ثلاثة : الأمانة في النقل، وسمو الهمة، وحمل هم الدعوة ، وقد قال أبو معاذ الرازي الواعظ الشهير – رحمه الله – : مسكين من كان الهدهد خيراً من !! . (٥)

---

(١) ينظر : دعوة الرسل لأحمد غلوش : (ص:٥٦٥) ، والسمو للدكتور عائض القرني : (ص:٣) .

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة : (٤/ ١٩٠) .

(٣) ينظر : التفسير القرآني للقرآن : (١٠/ ٢٣٤) .

(٤) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، لأبي محمد عفيف : (٣/ ٢٩٦) .

(٥) ينظر : السمو لعائض القرني : (ص: ٣) .

وفى موقف النملة التي تمثّل الدوابّ على الأرض، وهذا الهدهد الذي يمثل ما طار بجناحيه في السماء، شاهدان يشهدان بأن هذه الكائنات التي تعيش بيننا هي أمم مثل الأمة الإنسانية، في وحدة التكوين والتنظيم، والمشاعر، والمدارك وغيرها وفي هذا يقول تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[١] فينبغي أن تتطور دراسة الحيوان فلا تقف عند حدود الدراسة الجسدية وما يتصل بها، بل ينبغي أن تتجاوز هذه الدراسة إلى دراسات نفسية وعقلية أيضا .[٢]

المطلب الرابع

الدابّــة

الدَابَّةٌ: كل حَيَوَانٍ يدب على الارض ، وَيطْلَقُ على الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى وَالْجَمْعُ الدَّوَابُّ ، وَتَصْغِيرُهَا دُوَيْبَّةٌ على القياس ، وَخَالَفَ بعضهم فَأَخْرَجَ الطَّيْرَ مِنْ الدَّوَابِّ ، وَرُدَّ بِالسَّمَاعِ ، وَهُوَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ [٣] قَالُوا : أَيْ خَلَقَ اللَّهُ كُلَّ حَيَوَانٍ مُمَيِّزًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُمَيِّزٍ ،[٤] قال الجوهري – رحمه الله – : (دبَّ على الأرض يَدِبُّ دبيبا. وكل ماش على الارض دابَّةٌ ودبيبٌ. والدابة: التي تُرْكَبُ. ودابَّةُ الأرض: أحد أَشراطِ الساعةِ. وقولهم " أَكْذَبُ مَنْ دَبَّ ودَرَجَ " أي أكذب الأحياء والأموات). [٥]

---

(١) سورة الانعام ، الآية (٣٨) .
(٢) ينظر : التفسير القرآني للقرآن : (٤/ ١٧٠) .
(٣) سورة النور ، من الآية (٤٥) .
(٤) ينظر : المصباح المنير للفيومي : (١٨٨/١) .
(٥) الصحاح للجوهري : (١/ ١٢٤) .

قـــال تعـــالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (١)

فقولـه : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : حق العذاب عليهم ، قالـه ابـن عبـاس ، وقـال قتـادة: إذا غضـب الله عليهم ، والمعنـى: حق ووجب أن ينزل بهم ما قال الله، وحكم بـه من عذابـه وسخطه عليهم، وهم الكفار ، وذلك حين لا يؤمر بمعروف ، ولا ينهى عن منكر، ولا يبقى أحد منيب وتائب ، (٢) وقيل : وقع القول بموت العلماء وذهاب العلم ورفع القرآن . (٣)

والآيـة تشـير الـى شـيء مـن أشـراط السـاعة ، وهـو مـن خـوارق العـادات ، والتعبيـر عـن وقوعـه بصـيغة الماضـي لتقريـب زمـن الحـال مـن المُضـي ، أي اشـرف وقوعـه ، علـى أن فعـل المُضـيِّ مـع (اذا) يتقلـب الـى الاستقبال . (٤)

وفـي قولـه : ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال الآلوسـي – رحمـه الله – : (وقصارى ما أقول فـي هذه الدابـة أنهـا دابـة عظيمـة ذات قوائم ليست من نـوع الانسان أصـلا يخرجها الله تعالى آخر الزمان من الأرض ، وفـي تقييد إخراجها بقولـه سبحانه : من الأرض نوع إشارة الـى ما قيل : أن خلقها ليس بطريق التوالد بل هو بطريق التولد نحو خلق الحشرات) . (٥)

وفـي تعلق إخراج الدابـة من الأرض ؛ ليريهم كيف يحـي الله الموتى ، وفـي هذا اشـارة الـى منكري البعث ، كونها علامة من علامات الساعة التي ينكرونها . (٦)

---

(١) سورة النمل ، الآية (٨٢) .
(٢) ينظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي : (٣٨٥/٣) .
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : (٢٤٣/١٣) .
(٤) ينظر : التحرير والتنوير لابن عاشور : (٣٨/٢٠) .
(٥) روح المعاني للآلوسي : (٢٣٤/١٠) .
(٦) ينظر : التحرير والتنوير لابن عاشور : (٣٩/٢٠) .

وفي التعبير عنها باسم الجنس ، وتأكيد إبهامه بالتنوين الدال على التفخيم من الدلالة على غرابة شأنها ، وخروج أوصافها عن طور البيان ما لا يخفى . (١)

قال أبو حيان – رحمه الله – : (واختلفوا في ماهيتها ، وشكلها ، ومحل خروجها ، وعدد خروجها ، ومقدار ما تخرج منها ، وما تفعل بالناس ، وما الذي تخرج به ، اختلافاً مضطرباً معارضاً بعضه بعضاً ، ويكذب بعضه بعضاً ؛ فاطرحنا ذكره ؛ لأن نقله تسويد للورق بما لا يصح ، وتضييع لزمان نقله) ،(٢) فهذه من الأمور الغيبية التي لا يجب التصديق بها الا اذا ثبتت بالدليل القاطع عن الرسول المعصوم . (٣)

وفي قوله : ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ قرأها عامة قراء الامصار ، بضم التاء وتشديد اللام ، بمعنى : تحدثهم وتخبرهم ، وقرأها أبو زُرعة بن عمرو وغيره بفتح التاء وتخفيف اللام ، بمعنى: تسمهم ، وقراءة قرّاء الأمصار هي التي لا يجيز غيرها الطبري فهي القراءة المتواترة وغيرها الشاذة . (٤)

فعلى القراءة المتواترة معناها : تكلمهم ببطلان سائر الأديان سوى الاسلام ، قاله السدي ، وقيل : تخاطبهم فتقول للمؤمن : هذا مؤمن ، والكافر : هذا كافر ، وعلى قراءة أبي زُرعة : تجرحهم من الكلم ، والتشديد للتكثير ، وروي أنها تسمهم في وجوههم ، بالبياض في وجه المؤمن ، وبالسواد في وجه الكافر ، حتى يتنادى الناس في أسواقهم يا مؤمن ويا كافر . (٥)

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي (أَنَّ النَّاسَ) بفتح الألف ، واحتجوا بقراءة ابن مسعود (تُكَلِّمُهُمْ بِأَنَّ النَّاسَ) بالباء فلما سقطت الباء حكم عليها بالنصب ، وقرأ الباقون (إن الناس) بالكسر على الاستئناف ، جعلوا الكلام عند قوله (تكلمهم) تاما . (٦)

---

(١) ينظر : ارشاد العقل السليم لأبي السعود : (٣٠١/٦) .
(٢) البحر المحيط لأبي حيان : (٨/ ٢٦٩) .
(٣) ينظر : تفسير المراغي : (٢٢/٢٠) .
(٤) ينظر : جامع البيان للطبري : (١٩/ ٤٩٩) .
(٥) ينظر : النكت والعيون للماوردي : (٢٢٧/٤) ، والبحر المحيط لأبي حيان : (٩١/٧-٩٢) .
(٦) حجة القراءات لابن زنجلة : (ص: ٥٣٨) .

وجملة ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ تعليل لإظهار هذا الخارق للعادة ، أي : تكلمهم الدّابة ؛ لأنهم لا يوقنون بآيات الله ، ولا يؤمنون بها . (١)

وهذه الدّابة هي احدى العلامات الكبرى لقيام الساعة في آخر الزمان ، والدالة على قدرة الله تعالى ، وعلى صدق ما جاء به الأنبياء من ربهم ، وعلى ذلك وردت الأحاديث الصحيحة منها ما يأتي :

١- فعن حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ – رضي الله عنه – ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي غُرْفَةٍ وَنَحْنُ أَسْفَلَ مِنْهُ، فَاطَّلَعَ إِلَيْنَا، فَقَالَ: مَا تَذْكُرُونَ؟ " قُلْنَا: السَّاعَةَ، قَالَ: ((إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَكُونُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَالدُّخَانُ وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قُعْرَةِ عَدَنٍ تَرْحَلُ النَّاسَ)) . (٢)

٢- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه– ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : ((ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ)) . (٣)

٣- وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو – رضي الله عنه – ، قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ: ((إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا، طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا، فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا)) . (٤)

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير لابن عاشور : (٣٩/٢٠) .
(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ– بَابٌ فِي الْآيَاتِ الَّتِي تَكُونُ قَبْلَ السَّاعَةِ : (٤/ ٢٢٢٦) ، برقم (٢٩٠١) .
(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الايمان – بَابُ بَيَانِ الزَّمَنِ الَّذِي لَا يُقْبَلُ فِيهِ الْإِيمَانُ : (١/ ١٣٨) ، برقم (١٥٨) .
(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ– بَابٌ فِي خُرُوجِ الدَّجَّالِ وَمُكْثِهِ فِي الْأَرْضِ : (٤/ ٢٢٦٠) ، برقم (٢٩٤١) .

٤- وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ – رضي الله عنه – يرفعه الى النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : ((تَخْرُجُ الدَّابَّةُ فَتَسِمُ النَّاسَ عَلَى خَرَاطِيمِهِمْ، ثُمَّ يَعْمُرُونَ فِيكُمْ حَتَّى يَشْتَرِيَ الرَّجُلُ الْبَعِيرَ فَيَقُولُ: مِمَّنْ اشْتَرَيْتَهُ؟ فَيَقُولُ: اشْتَرَيْتُهُ مِنْ أَحَدِ الْمُخَطَّمِينَ)) . (١)

وهذه الآية والآيات التي قبلها تبين حال المشركين وما وصلوا اليه من الضلال والعمى ، فقال تعالى في الآيتين التي قبلها : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (٢) فخلق الله تعالى الكلام لهم على لسان دابة تحقيراً لهم وتنديماً على إعراضهم عن قبول أبلغ كلام وأوقعه من أشرف إنسان وأفصحه ، فهم في أتعس حال في وضع مقلوب، فهم أهل العقول لكنهم لا يعرفون الحق الذي تعرفه دواب الأرض التي تعيش معهم ، فالدواب تعرف حق الله سبحانه وتعالى وعظمته وجلاله ، وهي تدين لله سبحانه وتعالى بالعبودية والولاء والاستجابة لأمره وتسبح بحمده كما يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (٣)، (٤) وهذه الآية التي تحدثت عن موقف الدّابة في نصرة الحق وتأييد أهله بمعجزة النطق غير المألوفة عند الناس جاءت لتنظم الى معجزتا النملة والهدهد ، وقد جمعتهم سورة النمل ، فلم يذكر في القرآن حيوانات تتكلم إلا في هذه السورة ، وفي ذلك عبرة للمعتبرين ، وذكرى للذاكرين .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده : (٣٦/ ٦٤٧) ، برقم (٢٢٣٠٨) ، وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح .

(٢) سورة النمل ، الآية (٨٠-٨١) .

(٣) سورة الحج ، الآية (١٨) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير لابن عاشور : (٣٩/٢٠) .

المبحث الثالث
تنفيذ أمر اللّه سبحانه وتعالى

إن كل المخلوقات ومنها الحيـوانات منقادة لله ، خاضعة لأمره ، ولتنفيذ مشيئته طوعاً وكرهاً ، كما يقـول تعـــالى : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾ ، [١] وهنـــاك الكثير من الأمثلة للحيوانات التي لها كمال العبودية لله والانقياد والطاعة له ، وهناك من الحيوانات من أودع الله فيهـا الغيـرة علـى الحـق ، والتـأذي مـن الباطـل فهـي تستبشـر بأهـل الخيـر وتتـأذى مـن العصـاة وظلمهـم وجورهم، وهذا مـا أكده النبـي – صـلى الله عليـه وسلم – عنـدما مُرَّ عَلَيْـهِ بِجَنَـازَةٍ فقال : ((مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْـهُ)) ، قَـالُوا: يَـا رَسُولَ اللهِ، مَـا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْـهُ؟ فَقَـالَ: ((الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا، وَالْعَبْدُ الْفَـاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْـهُ الْعِبَـادُ، وَالْبِـلَادُ، وَالشَّـجَرُ، وَالـدَّوَابُّ)) ، [٢] وعنـدما أثنـى علـى أهـل العلـم بقولـه : ((إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ)) . [٣]

وما موقف الحوت والغراب والجراد والطير الأبابيل وغيرها من الحيوانات من هذا الانقياد والامتثال ببعيد ، فهذا ما سنتعرفه من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول : حوت سيدنا يونس – عليه السلام – .

المطلب الثاني : الغراب .

المطلب الثالث : الفيل والطير الابابيل .

المطلب الرابع : الجراد والقمل والضفادع .

---

(١) سورة آل عمران ، من الآية (٨٣) .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق – باب سَكَرَاتِ الْمَوْتِ : (٨/ ١٣٣) ، برقم (٦٥١٢) ، ومسلم ، كتاب الجنائز – بَابُ مَا جَاءَ فِي مُسْتَرِيحٍ وَمُسْتَرَاحٍ مِنْهُ : (٢/ ٦٥٦) ، برقم (٩٥٠) .

(٣) أخرجه الترمذي ، أبواب العلم – بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الفِقْهِ عَلَى العِبَادَةِ : (٣٤٧/٤) ، برقم (٢٦٨٥) ، وقال الترمذي : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ .

المطلب الأول

حوت سيدنا يونس – عليه السلام –

الحوت : السمك ، وقيل : هو ما عظم منه ، والجمع أَحْواتٌ وحِيتانٌ ،[١] ومن اسمائه (النون) ، والجمع انوان ونينان . [٢]

وذكر الحوت في القرآن الكريم في مواضع منها مع أصحاب السبت في قوله تعالى :﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ ،[٣] وهذا يمكن أن يقع من الحيتان بإرسال من الله تعالى كإرسال السحاب ، أو بوحي الهام ، كالوحي الى النحل ، أو بإشعار في ذلك اليوم ، نحو ما يشعر الله الدواب يوم الجمعة بأمر الساعة كما أخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله : ((وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ مُسِيخَةٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، مِنْ حِينَ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ، إِلَّا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ)) . [٤] ويحتمل أن يكون ذلك من الحيتان شعورا بالسلامة في ذلك اليوم، ويكفي الحوت شرفا أنه كان وعاءاً ومسكناً لنبي الله يونس – عليه السلام – وذلك أن الله تعالى أوحى إليه إني لم أجعل لك يونس رزقا، وإنما جعلت بطنك له حرزا وسجنا، ثم استنقذه الله تعالى من بطنه ، وجعل له فرجاً ومخرجاً . [٥]

والحوت جنس من الحيوانات الثديية من رتبة الحيتان ، وهي تختلف في طبائعها ، فمنها الوديع، ومنها المشاكس، ومنها المسالم، ومنها المقاتل، وما يميزها عن المخلوقات جميعا ضخامتها التي لم يصل إليها حيوان في الماضي أو الحاضر، ويبدو الإنسان أمام تلك الحيتان العملاقة وكأنه دمية صغيرة، فقد يصل طول الحوت إلى ما يقرب من ثلاثين مترا أو يزيد .

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده : (٤٩٣/٣) ، ولسان العرب لابن منظور : (٢٦/٢) .

(٢) الصحاح للجوهري : (٢٢١٠/٦) .

(٣) سورة الاعراف ، من الآية (١٦٣) .

(٤)أخرجه أبو داود ، أبواب الجمعة– باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة : (٢/ ٢٧٧) ، برقم (١٠٤٦) ، قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح.

(٥) ينظر : حياة الحيوان الكبرى للدميري : (٣٧٨/١-٣٧٩) .

والحيتان من الحيوانات الولود ، ومن طبعها الشراهة ، فقالوا :

كالحوت لا يلهيه شيء يلهمه ... يصبح ظمأن وفى البحر فمه

ويضرب لمن عاش بخيلا شرها! وحكمه كعموم السمك في حل الاكل منه . (١)

وقد ذكر الله تعالى قصة الحوت مع سيدنا يونس – عليه السلام – في ثلاث سور من القرآن ، وهي سورة الأنبياء ، والصافات ، والقلم ، وفي كل سورة يذكر الله تعالى ما يناسب سياقها لهذا الحدث العجيب العظيم .

قال تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾ (٢)

وقوله تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ ﴾ يعني : صاحب الحوت ، والنون :الحوت وانما عني بذي النون : يونس بن متّى ، وهو نبي من أنبياء الله ورسول من رسله ، وأضيف الى النون لابتلاعه إياه ،(٣) وسماه القرآن في موضع آخر بصاحب الحوت في قوله: ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ ﴾(٤) والملاحظ أنه حين ذكره في موضع الثناء عليه قال : (ذو النون) وإن الإضافة بذي أشرف من الإضافة بصاحب ؛ لأنَّ ذو يضاف بها إلى التابع، وصاحبُ يُضَافُ بها إلى المتبوع ، ولفظ النون أشرف من الحوت لوجوده في حروف التهجي وفي أوائل بعض السور ، كسورة القلم ، ومن هنا تبين أهمية هذا الحيوان ودوره في هذا القصص حتى سمي نبي من أنبيـاء الله بـ (ذا النون) و (صاحب الحوت) . (٥)

---

(١) ينظر : موسوعة الطير والحيوان : (ص: ١٦١-١٦٢) .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية (٨٧-٨٨) .

(٣) ينظر : زاد المسير لابن الجوزي : (٢٠٨/٣) .

(٤) سورة القلم ، من الآية (٤٨) .

(٥) ينظر : الجواهر الحسان للثعالبي : (٤/ ٩٧) ، وروح البيان ، لإسماعيل حقي الإستانبولي : (٥١٦/٥) .

وقد بعث الله يونس – عليه السلام – الى أهل قرية (نينوى) وهي قرية من أرض الموصل ، فدعاهم الى توحيد الله وعبادته فأبوا عليه وتمادوا في كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم ، مغاضباً لهم قبل أن يأذن الله له ، ووعدهم العذاب بعد ثلاث ، فلما تحققوا منه وعلموا أن النبي لا يكذب ، خرجوا الى الصحراء بأطفالهم وانعامهم ومواشيهم ، وعجّوا الى الله بالتوبة الصادقة ، وردوا المظالم الى أهلها فرفع الله عنهم العذاب ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١) وأما يونس –عليه السلام – فقد خرج مغاضباً لا غاضباً ، لأن قومه شاركوه ، وكانوا سبب غضبه ، كما حدث في مسألة هجرة النبي – صلى الله عليه وسلم – ، هاجر من مكة لكنه لم يهجرها ، فسميت هجرة ؛ لأن أهل مكة هجروا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وهجروا دعوته والجئوه أيضاً الى الهجرة وترك مكة فهم طرف في الهجرة وسبب لها ،(٢) فقال تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ ﴾ (٣)

وعبّر عن خروجه بالإباق مع أن الإباق لا يكون إلا في هرب العبد من سيده ؛ لأنه خرج قبل أن يأذن الله له بالخروج ، فسمي إباقاً على طريقة المجاز . (٤)

فيونس – عليه السلام – أَبَقَ بدينه ليسلم له، أو أبق لخوف على نفسه من قومه، أو أبق على ما أوعد قومه من نزول العذاب بهم إذا لم يؤمنوا به، وكان الرسل – صلوات اللَّه عليهم – يخرجون من بين أظهر قومهم إذا خافوا نزول العذاب بهم، إلا أن يونس – عليه السلام – خرج قبل أن يأتيه الإذن من اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ؛ لذلك جاء العتاب والتعيير، لا لما يقوله عامة أهل التأويل من الخرافات التي يذكرونها وينسبون إليه ما لا

---

(١) سورة يونس ، الآية (٩٨) .
(٢) ينظر : تفسير الشعراوي : (٩٦٢٢/١٥) .
(٣) سورة الصافات ، الآية (١٣٩-١٤٠) .
(٤) ينظر : الكشاف للزمخشري : (٦١/٤) .

يجوز نسبة ذلك إلى أجهل الناس بربه وأخسهم، فضلا أن يجوز نسبة ذلك إلى نبي من أنبيائه ورسول من رسله . (١)

وقوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ فيه وجهان من التفسير لا يكذب أحدهما الآخر :

الأول: أن المعنى : لن نضيق عليه في بطن الحوت ، كقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾(٢) .

الوجه الثاني: أن المعنى : لن نقضي عليه ذلك ، فهو من القدر والقضاء ، ومنه قوله تعالى:

﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ (٣) أي: قدره الله . (٤)

ولا يجوز تأويله أنه من القدرة عليه ،وأنه يفوت الله ، فانه كان – صلى الله عليه وسلم – أعلم بالله من ذلك ، (٥) وإن ظنّه بعدم التضييق عليه ؛ لوثوقه بربه، ولأنه لم يظن أنه أذنب معه بترك قومه، بل كان يظن أنه مخير بين الإقامة معهم والخروج من بينهم عند عدم قبولهم دعوته ، لذلك فإن فعله هذا لا يستوجب الذنب لو كان من سائر البشر، وهذا التفسير أنسب وأولى بالمقام . (٦)

ويروى أنه حين غضب على قومه خرج من بينهم ، حتى أتى بحر الروم ، ووجد سفينة مملوءة بالحمولة ، فحملوه فيها ، فلما وصلت الى لجة البحر أشرفت على الغرق ، فقال الملاحون : إن فيكم عبداً عاصياً ، وكانوا يزعمون أن السفينة اذا كان فيها آبق لم تجر فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم ، فوقعت القرعة على يونس ، فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضاً ثم أعادوها فلم تفارقه ، وفي ذلك يقول تعالى :

---

(١) ينظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي : (٨/ ٥٨٧) .
(٢) سورة الرعد ، من الآية (٢٦) .
(٣) سورة القمر ، من الآية (١٢) .
(٤) ينظر : أضواء البيان للشنقيطي : (٤/٢٤٠-٢٤١) .
(٥) ينظر : الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب :(٧/ ٤٨٠١) .
(٦) بيان المعاني لعبد القادر بن ملّا حويش : (٤/٣٢٨) .

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [١] أي: فكان من المقروعين ومن المغلوبين بالقرعة ، فقام يونس – عليه السلام – وتجرد من ثيابه ، ثم القى بنفسه في البحر ، فوكّل الله به حوتاً فابتلعه ، وأوحى الله له : أن لا تأكل له لحماً ، ولا تهشم له عظماً ، فان يونس ليس لك رزقاً ، وانما بطنك تكون له سجناً . [٢]

وفي هذا يقول تعالى : ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾[٣] وفي تعريف (الحوت) إشارة الى أنه حوت مرصود لهذه الغاية ، وأنه مسوق بقدرة الله الى تلك المهمة ، وهي ابتلاع يونس – عليه السلام – [٤] فهذا الابتلاع من الحوت تنفيذ لأمر الله سبحانه وتعالى ، ولكن الله حماه من أن تهضمه معدة الحوت الضخم ، فهو على هذا الحال مستحق اللوم ؛ لأنه أتى ما يلام عليه حين خرج الى السفينة قبل أن يأمره الله ، فاستحق هذا اللوم والتأنيب . [٥]

قال ابن عاشور – رحمه الله – : (وكان غَرَقُهُ في البحر المسمى بحر الروم وهو الذي نسميه البحر الأبيض المتوسط، ولم يكن بنهر دجلة كما غلط فيه بعض المفسرين) . [٦]

قال عوف الأعرابي : لما صار يونس في بطن الحوت، ظن أنه قد مات، ثم حرك رجليه، فلما تحركت، سجد مكانه، ثم نادى: يا رب، اتخذت لك مسجداً في موضع ما اتخذه أحد . [٧]

وقوله تعالى : ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ يعني نادى يونس – عليه السلام –

---

(١) سورة الصافات ، الآية (١٣٩-١٤١) .
(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : (٣٦٦/٥) ، وتفسير حدائق الروح لمحمد الأمين الهرري : (١٧٧/١٨) .
(٣) سورة الصافات ، الآية (١٤٢) .
(٤) التفسير القرآني للقرآن : (١٠٢٨/١٢) .
(٥) ينظر : التفسير الوسيط للزحيلي : (١٦٠٩/٢) .
(٦) التحرير والتنوير لابن عاشور : (١٧٦/٢٣) .
(٧) الهداية الى بلوغ النهاية لمكي بن أبى طالب : (٧/ ٤٨٠٦) .

في ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وقيل : إن الحوت الذي ابتلع يونس ابتلعه حوت آخر، فتلك الظلمات بطن الحوت في بطن حوت في ظلمة البحر ، وقيل : أراد المبالغة في شدة الظلمة ، كقول تعالى : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾،[١] وفي قوله ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ بالفرار من غير اذن وأنا الآن من التائبين ، وفيه من حسن الطلب ما فيه ، فلذلك استجاب الله دعاءه ونجاه من الحبس في بطن الحوت ، وكذلك ينجي المؤمنين من كل كرب اذا استغاثوا به ، ويروى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : ((دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إلا اسْتَجَابَ لَهُ)) .[٢]

وفي موضع آخر ذكر تعالى التسبيح الذي هو علة استنقاذه فقال : ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[٣] وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها: مِنَ المُصَلِّين، قاله ابن عباس .

والثاني: من العابدِين، قاله مجاهد .

والثالث: قول (لا إِلـهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّـي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) ، قاله الحسن. وروى عن الحسن قال : والله ما كانت إلاّ صلاة أَحدثَها في بطن الحوت ، فعلى هذا القول، يكون تسبيحه في بطن الحوت ، وجمهور العلماء على أنه لولا ما تقدَّم له قبل التقام الحوت إيّاه من التسبيح لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة .[٤]

---

(١) سورة البقرة ، من الآية (٢٥٧) .

(٢) ينظر :غرائب القرآن للنيسابوري :(٤٧/٥) ،والحديث أخرجه أحمد في مسنده :(٣/ ٦٦) ،برقم(١٤٦٣) ،قال شعيب الأرنؤوط :إسناده حسن .

(٣) سورة الصافات ، الآية (١٤٣-١٤٤) .

(٤) ينظر : زاد المسير لابن الجوزي : (٣/ ٥٥٣) .

قال الامام الالوسي – رحمه الله – : (والأولى حمل زمان كونه من المسبحين على ما يعم زمان الرخاء وزمان كونه في بطن الحوت فإن لاتصافه بذلك في كلا الزمانين مدخلا في خروجه من بطن الحوت) . [١]

وفي حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – : ((احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ)) . [٢]

كان الضحاك بن قيس يقول على منبره : اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدّة، إن يونس كان عبدًا لله ذاكرا، فلما أصابته الشدّة دعا الله فقال الله: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [٣] فذكره الله بما كان منه، وكان فرعون طاغياً باغياً فلمَّا ﴿ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [٤]. [٥]

وقد وُجِدَتْ شبهة في هذه القصة وهي أنه كيف يلبث يونس – عليه السلام – في بطن الحوت إلى يوم يُبعثون، مع أن يونس سيموت، وسيأتي أجَل الحوت ويموت أيضاً، أم أن الحوت سيظل إلى يوم القيامة يحمل يونس في بطنه؟ وفات هؤلاء نظرية الاحتواء في المزيجات، كما في إذابة قالبٍ من السكر في كوب ماء، فسوف تحتوي جزئيات الماء جزئيات السكر، والأكثر يحتوي الأقل، فقالب السكر لا يحتوي الماء، إنما الماء يحتوي السكر ، فلو مات الحوت، ومات في بطنه يونس – عليه السلام – وتفاعلت ذراتهما وتداخلتْ، فقد احتوى الحوتُ يونسَ إلى أن تقوم الساعة، وعلى هذا يتبين المعنى جلياً، فهو في بطنه رغم تناثر ذراتهما. [٦]

---

(١) روح المعاني للألوسي : (١٢/ ١٣٨) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده : (٥/ ١٩) ، برقم (٢٨٠٣) ، قال شعيب الأرنؤوط : حديث صحيح .
(٣) سورة الصافات ، الآية (١٤٣-١٤٤) .
(٤) سورة يونس ، الآية (٩٠-٩١) .
(٥) جامع البيان للطبري : (٢١/ ١١٠) .
(٦) ينظر : تفسير الشعراوي : (١٥/ ٩٦٢٤) .

وفي قوله : ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي هو والحوت وغيرهما من الخلائق ، وعبر بالجمع لإفادة عموم البعث، ولو أفرد لم يفد بعث الحيوانات العجم ، ولو ثنى لظن أن ذلك له وللحوت خاصة لمعنى يخصها فلا يفيد بعث غيرهما . (١)

وفي قوله : ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (٢) أي : القيناه بالعراء ، وهو المكان الخالي ، لا شجر فيه ولا شيء يغطيه وقال سعيد بن جبير : أوحى الله تعالى الى الحوت أن القه في البر ، فالقاه لا شعر عليه ولا جلد ولا ظفر ، ويروى أنه عاد بدنه كبدن الصبي حين يولد ، وانبت الله عليه شجرة القرع يأكل منها ، ويستظل بها ، وانما خصّه الله به ؛ لأنه يجمع برد الظل ولين اللمس ، وكبر الورق ، وأن الذباب لا يقربه ، فان لحم يونس لما خرج من بطن الحوت كان لا يحتمل الذباب . (٣) فإن قيل: لم قال ها هنا: ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ وقال في موضع آخر ﴿ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ (٤) وهو يدل على أنه لم ينبذ، فكيف وجه التوفيق بين الآيتين؟

والجواب عنه: أن الله تعالى قال في تلك الآية: ﴿ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ أي: لولا رحمتنا ونعمتنا لنبذ بالعراء وهو مذموم، ولكن تداركته النعمة؛ فنبذ وهو غير مذموم . (٥)

وقوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ اختلفوا هل كانت رسالته قبل التقام الحوت إيّاه، أم بعد ذلك؟ على قولين:

أحدهما: أنها كانت بعد نبذ الحوت إيّاه، وهو مروي عن ابن عباس.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي : (١٦/ ٢٩٣) .
(٢) سورة الصافات ، الآية (١٤٥-١٤٨) .
(٣) ينظر : الكشاف للزمخشري : (٦٢/٤) ، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي : (١٩٨/٢) .
(٤) سورة القلم ، من الآية (٤٩) .
(٥) تفسير القرآن للسمعاني : (٤/ ٤١٧) .

والثاني: أنها كانت قبل التقام الحوت له، وهو قول الأكثرين، منهم الحسن، ومجاهد، وهو الأصح، والمعنى: وكنَّا أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ، فلمّا خرج من بطن الحوت، أُمِر أن يرجع إلى قومه الذين أُرسِل إليهم . (١)

وفي قوله تعالى : ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (٢) لم يبين هنا من هو صاحب الحوت ولا نداءه وهو مكظوم ، ولا الموقف المنهي عنه أن يكون مثله ، فأما الصاحب فقد ذكرناه ، وأما النداء فعرفناه ، وأما الموقف الذي نهى الله سبحانه وتعالى نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يكون مثله ، فهو موقف يونس – عليه السلام – حين نادى ربه في حال هو فيها مملوء غيظاً وكرباً لما حدث له مع قومه ، ولما أصابه من بلاء وهو في بطن الحوت ، فالذي يحذّر منه النبي – صلى الله عليه وسلم – هو أن لا يكن منه ما يلجئه الى مثل ندائه . (٣)

والصاحب : الذي يصحب غيره ، أي يكون معه في بعض الأحوال أو في معظمها ، واطلاقه على يونس ؛ لأن الحوت التقطه ، ثم قذفه فصار (صاحب الحوت) لقباً له ؛ لأن تلك الحالة معيّة قوية . (٤)

وأدمج في ذلك فضل التوبة والضراعة إلى الله ، وأنه لولا توبته وضراعته إلى الله ، وإنعام الله عليه نعمة بعد نعمة ؛ لقذفه الحوت من بطنه ميتا ، فأخرجه الموج إلى الشاطئ ، فلكان مُثْلَةً للناظرين أو لقذفه حيا منبوذا بالعراء لا يجد إسعافا، وهي نعم عظيمة كثيرة إذ أنقذه من هذه الورطات كلها إنقاذا خارقا للعادة ، وهذا المعنى طوي طيا بديعا ، وأشير إليه إشارة بليغة بجملة ﴿ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴾ . (٥)

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي : (٣/ ٥٥٣) .
(٢) سورة القلم ، الآية (٤٨-٥٠) .
(٣) ينظر : أضواء البيان للشنقيطي : (٢٥٥/٨) ، والتفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي : (٦٠/١٥) .
(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور : (١٠٤/٢٩) .
(٥) التحرير والتنوير لابن عاشور : (١٠٦/٢٩) .

ثم ختم الحديث عن يونس – عليه السلام – بأنه تعالى تداركه بالنعمة واصطفاه ، ورد عليه الوحي بعد انقطاعه ، وأرسله الى مائة الف أو يزيدون من الناس ، وقبل توبته فجعله من عباده الكاملين في الصلاح والتقوى وفي تبليغ الرسالة . (١)

وفي مدة لبث يونس – عليه السلام – في بطن الحوت ، فقد ذكر المفسرون روايات مختلفة ، ولفظ القرآن والسنة لا يدل عليه ، فمنهم من قال : أربعون يوماً ، ومنهم من قال : سبعة أيام ، ومنهم من قال : ثلاثة أيام ، ومنهم من قال : التقمه ضحى ونبذه قبل غروب الشمس ، وهذه الأقوال لا ينبغي التعويل عليها ، اذ ليس بنا الى معرفة ذلك حاجة ، والمهم أن نعتقد أن الحوت لم يمزق جسم نبي الله يونس – عليه السلام – ؛ لأنه موجه بالهام الله فهو الذي سخر الحوت لابتلاعه كما سخره لنبذه ، وقد ذكرنا في حديثنا كيف وجه الله سبحانه وتعالى حيتان بني اسرائيل في يوم السبت ، فكان امراً باهراً للعقل أبرزه الله في مظهر العظمة ، فنحن نعتقد أن يونس – عليه السلام – مكث في بطن الحوت فترة من الزمن – الله أعلم بها – ولو شاء سبحانه ما أمر الحوت ولا أدخل يونس في هذه التجربة ، ولكنه سبحانه قضت إرادته أن يقوم كل كائن بما أودع فيه من قوى ، ففي ذلك تحقيق لذاته وإثبات لوجوده . (٢)

المطلب الثاني

الغـــراب

الغراب : الطَّائِر الْمَعْرُوف ، وَالْجمع غِربان وَأَغْرُبُ وَغُربً وأغرِبَةً ، وغراب كل شيء حدّه . (٣)

وهو جنس طير من الجواثم ، يطلق على أنواع كثيرة : منها الأسود، والأبقع ، والزاغ ، والغداف، والأعصم ، وهو من لئام الطير، وليس من كرامها، ولا من أحرارها، ومن شأنه أكل الجيف والقمامات، والعرب يتشاءمون به إذا نعق قبل الرحيل، ويقال: غراب البين ، وقد حث الإسلام على التفاؤل، ونهى عن التشاؤم ، ويضرب بالغراب المثل في السواد، والبكور، والحذر، والبعد؛ يقولون: (بكّر بكور الغراب) و (فلان أحذر من الغراب)

---

(١) ينظر : التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي : (٦١/١٥) .
(٢) ينظر : تأويلات أهل السنة للماتريدي : (٧/ ٣٧١) ، والتفسير الكبير للرازي : (٣٥٧/٢٦) ، والتفسير القرآني للقرآن : (١٠٣١/١٢) .
(٣) ينظر : جمهرة اللغة لأبي بكر الأزدي : (١/ ٣٢١) .

و(دون هذا شيب الغراب) ، وكنيته: أبو حاتم، وأبو حذر، وأبو زيدان ، وفى الغراب كله الاستتار عند السفاد ، وفى طبعه أن لا يتعاطى الصيد، بل إن وجد جيفة أكل منها ، وإلا مات جوعا . (١)

وعَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا– ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ قَالَ: ((خَمْسٌ فَوَاسِقُ، يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْحَيَّةُ، وَالْغُرَابُ الْأَبْقَعُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ، وَالْحُدَيَّا)) . (٢) وسماهن فواسق لفسقهن وخروجهن لما عليه سائر الحيوان، لما فيهن من الضرر . (٣)

وحكمه : أن الجمهور على حرمة أكل الفواسق المأمور بقتلها ، فيحرم أكل الغربان إلا نوعين منها وهما العقعق ، وغراب الزرع ، فالعقعق أن لم يكن يأكل الجيف فلا بأس ، وأما غراب الزرع فانه لا يأكل إلا الحب والزرع . (٤)

قال تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (٥)

---

(١) ينظر : موسوعة الطير والحيوان (ص: ٢٨٩-٢٩٠) .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب بدء الخلق – باب خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِّ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ في الْحَرَمِ : (٤/ ١٥٧) ، برقم (٣٣١٤) ، ومسلم ، كتاب الحج – بَابُ مَا يَنْدُبُ لِلْمُحْرِمِ وَغَيْرِهِ قَتْلَهُ مِنَ الدَّوَابِّ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ : (٢/ ٨٥٦) ، برقم (١١٩٨) واللفظ له .

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال : (٤/ ٤٩١) .

(٤) ينظر : الموسوعة الفقهية الكويتية ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية : (٢١٨/٣٢) .

(٥) سورة المائدة ، الآية (٢٧-٣١) .

هذا المشهد العظيم هو مشهد أول حضارة في البشر، وهي من قبيل طلب ستر المشاهد المكروهة، وهو أيضا مشهد أول علم اكتسبه البشر بالتقليد وبالتجربة، وهو أيضا مشهد أول مظاهر تلقي البشر معارفه من عوالم أضعف منه ، فذكرنا الهدهد والنملة ، وفي هذا الموقف نذكر الغراب الذي كان معلماً وشاهداً على اول جريمة قتل متعمد ، فكم في هذه القصة من عبرة للتاريخ والدين والخلق . (١)

وقصة ابني ادم طفحت بها المطولات من التفاسير ، فذكر جمهور العلماء إنهما ابنا آدم لصلبه، وهما هابيل، وقابيل ، وقال الحسن البصري – رحمه الله – : هما رجلان من بني إسرائيل، ولكن القرآن يشهد لقول الجماعة، ويدل على عدم صحة قول الحسن بقوله : ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ ﴾ ، ولا يخفى على أحد أنه ليس في بني إسرائيل رجل يجهل الدفن ؛ حتى يدله عليه الغراب، فقصة الاقتداء بالغراب في الدفن، ومعرفته منه تدل على أن الواقعة وقعت في أول الأمر، قبل أن يتمرن الناس على دفن الموتى، كما هو واضح، ونبه عليه غير واحد من العلماء . (٢)

واختلف في السبب الذي قربا لأجله قرباناً على قولين: أحدهما: أنهما فعلاه لغير سبب، والثاني: وهو أشهر القولين ، أن ذلك لسبب ، وهو أن آدم – عليه السلام – كان يزوج ذكر كل بطن من ولده بأنثى الآخر، وإن أخت قابيل كانت أجمل من أخت هابيل ، فأراد قابيل أن يستأثر توأمته التي لا تحل له ، فأمرهما أبوهما بأن يقربا قرباناً ، فمن تقبل تزوجها ، وكان قابيل صاحب زرع ، فقرب أرذل زرعه ، وكان هابيل صاحب غنم فقرّب أحسن كبش عنده ، فقبل قربان هابيل دون قابيل ، وكان ذلك سبب الشر بينهما ، (٣) ولم يبين لنا الله تعالى علامة القبول ، ويحتمل أن يكون ذلك بوحي من الله لأبيهما آدم – عليه السلام – ، وقيل : أن القربان المقبول كانت تجيء النار فتأكله ولا تأكل غير المقبول ، وهذه اخبار اسرائيلية ، ليس فيها مرفوع للنبي – صلى الله عليه وسلم– يعوّل عليه . (٤)

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير لابن عاشور : (١٧٤/٦) .
(٢) ينظر : أضواء البيان للشنقيطي : (٣٧١/١) .
(٣) ينظر : النكت والعيون للماوردي : (٢٧/٢-٢٨) .
(٤) ينظر : تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا : (٢٨٣/٦) .

لقد كان أساس قبول القربان التقوى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فثارت ثائرة الحسد والحقد ، واستغلظ الحسد فكان عدواناً وانتقاماً ، واذا الاخ يتوعد أخاه ثم تمتد اليه يد الاثم فتقتله ، فتكون عاقبة القاتل الندامة والخسران المبين . [١] قال المفسرون : إن قابيل لما قتل أخاه تركه بالعراء ، ولم يدر ما يصنع ؛ لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بني آدم ، فعكفت عليه الطير والسباع ، فحمله في جراب على ظهره حتى أروح ، فأراد الله أن يرى قابيل سنته في دفن موتى بني آدم ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : وكان غرابين اقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، وقابيل ينظر، ثم بحث في الأرض حتى جعل له حفرة فدفنه فيها، ففعل قابيل مثل ما فعل الغراب . [٢] قال ابن قتيبة : هذا من الاختصار ، والتقدير : فبعث الله غراباً يبحث التراب على غراب ميت ليواريه ،[٣] وقيل : إن الغراب بحث الأرض على طعمه ؛ ليخفيه الى وقت الحاجة اليه ؛ لأنه من عادة الغراب فعل ذلك ، فتنبه قابيل ذلك على مواراة أخيه . [٤] والحق أن الآية الكريمة نصت على أن الغراب قد أخذ يبحث في الأرض، حتى حفر حفرة، دفن فيها شيئا أو طيرا ميتا، ولم تتعرض لكون المدفون طيرا ، أو غير طير، ولا لكون الطير مات بقتل الدافن، أو مات بسبب آخر، وهذا الذي لم تحدده الآية الكريمة ، والغرض والمغزى الذي نستطيع أن نفرضه هو أن الغراب أخذ يحفر في الأرض، حتى أتم حفرة وضع فيها شيئا، فعلم القاتل الجهول أن ذلك هو الطريق لدفن أخيه ، والتعبير بالمضارع (يبحث)عن أمر مضى؛ لبيان أن الفعل مكث وقتاً وكان مجال استمرار. [٥]

---

(١) ينظر : التفسير القرآني للقرآن : (١٠٧٥/٣) .
(٢) ينظر : التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي : (٣٤٤/٧) ، ولباب التأويل للخازن : (٣٤/٢) .
(٣) ينظر : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة الدينوري : (ص:١٤٧) .
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : (١٤١/٦) .
(٥) ينظر : زهرة التفاسير لأبي زهرة : (٤/ ٢١٣٢) .

ويقول صاحب الضلال – رحمه الله – : (أن دفن الغراب لأخيه الغراب، قد يكون من عادات الغربان ، كما يقول بعض الناس، وقد يكون حدثاً خارقاً أجراه الله ، وهذه كتلك سواء، فالذي يودع الأحياء غرائزهم هو الذي يجري أي حدث على يد أي حي، هذا من قدرته ، وهذا من قدرته على السواء) . [١]

وقوله : ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ﴾ بمعنى الارسال ، وهو هنا مستعمل في الإلهام بالطيران إلى ذلك المكان، أي : فألهم الله غرابا بالطير الى ذلك بحيث يراه قابيل ، وكأن اختيار الغراب لهذا المهمة دون غيره من الطيور، إما لأن الدفن حيلة في الغربان من قبل، وإما لأن الله اختاره لمناسبة ما يعتري الناظر إلى سواد لونه من الانقباض بما للأسيف الخاسر من انقباض النفس ، ولعل هذا هو الأصل في تشاؤم العرب بالغراب في الفراق والاغتراب . [٢] وفيه حكمة بالغة ؛ ليرى ابن آدم ويتعلم كيفية مواراة الاموات، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴾[٣]، فصار فعل الغراب سنة باقية في الخلق ، فرضا على جميع الناس على الكفاية ، من فعله منهم سقط فرضه عن الباقين، وأخص الناس به الأقربون الذين يلونه ، ثم الجيرة ، ثم سائر المسلمين. [٤]

فالله تعالى الهم الغراب الدفن ، وكان قادراً على أن يلهم ابن آدم ، ولكنه أراد له أن يتعلم مما يرى ؛ ليُعمل عقله الذي ميز به عن الحيوان ، وان تدبير دقائق الكون هو من أمر الله سبحانه وقدرته البالغة، فهذا الغراب لم يذهب من تلقاء نفسه ، ولم يره ابن آدم موافقه ، بل جاء بعناية الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وفي ذلك حث للإنتفاع بالأمم الأخرى وما فطرها الله عليه من تدبير لشؤونها ، فالطير والبهائم أمم امثالنا ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم ﴾ ،[٥] وهذه الأمم لها تدابير فطرها الله عليها ؛ ولذلك تتكاثر وتنمو ويزداد عددها ، وتصل الى حوائجها ، فالإنسان محتاج اليها في مطعمه ومشربه

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب : (٢/ ٨٧٧) .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير لابن عاشور : (١٧٣/٦) .
(٣) سورة عبس ، الآية (٢١) .
(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : (١٤٣/٦) .
(٥) سورة الانعام ، من الآية (٣٨) .

وملبسه وفي اجراء تجاربه باستخدام الادوية ،فينتفع بها في اجتناب ما يستقبح والانتفاع بما يستحسن. [١]

واللام في قوله : ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ للتعليل اذا كان الضمير راجعاً الى الله تعالى ، أي أن هذا الغراب أحد جنود الله تعالى لإظهار توجيه من توجيهاته ، وقد تكون للصيرورة والعاقبة اذا كان الضمير عائداً الى الغراب، أي : لتكون عاقبة بحثه ما ذكر . [٢]والمراد بالسوءَة هنا : قيل : العورة ، وخصت بالذكر مع أن المراد مواراة جميع الجسد للاهتمام بها ، ولأن سترها أوكد ، وقيل : هي الحالة التي تسوء الناظر بمجموعها ، ولما كان الميت كله عورة لذلك كفن بالأكفان . [٣]

وقوله : ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ﴾ فكلمة ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ تستعمل عند وقوع المصيبة العظيمة ، وهو اعتراف على نفسه باستحقاق العذاب ، وكأن الويل غير حاضر فناداه للحضور لنزول أسبابه ،[٤] ومعنى هذا الاستفهام : الانكار على نفسه حيث استصغر ادراكه وعقله في جهله ما يصنع بأخيه حتى يُعلّم ، وهو ذو العقل المُركّب فيه الفكر والروية والتدبير من طائر لا يعقل . [٥]

وهذا الهوان وهذا الذل كله من جرّاء المعصية ، فهي تعمي صاحبها وتذهب بنور بصيرته ، حتى تجعله تلميذاً للغراب والغراب له معلماً مع أن الغراب من الفواسق ، مع أنه قالوا عنه :اذا كان دليل قوم يدلهم على جيف الكلاب ، فأصبح لذلك من النادمين ،اذ رأى نفسه أضأل من هذا الحيوان شأناً وأعمى بصيرة ،وأضل سبيلاً ،وأصبح وقد سنّ هذه السنة السيئة التي يحمل وزرها الى يوم الدين فيقول رسول الله –صلى الله عليه وسلم–:((لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ)).[٦]

---

(١) ينظر : ارشيف ملتقى أهل التفسير .

(٢) ينظر : تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا : (٢٨٦/٦) .

(٣) ينظر : البحر المحيط لأبي حيان : (٢٣٤/٤) .

(٤) ينظر : التفسير الكبير للرازي : (٣٤٢/١١) .

(٥) ينظر : البحر المحيط لأبي حيان : (٢٣٤/٤) .

(٦) ينظر : التفسير القرآني للقرآن : (١٠٨٠/٣) ، والحديث أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء – باب خَلْقِ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَذُرِّيَّتِهِ : : (٤/ ١٦٢) ، برقم (٣٣٣٥) ، ومسلم ، كِتَابُ الْقَسَامَةِ وَالْمُحَارِبِينَ وَالْقِصَاصِ وَالدِّيَاتِ – بَابُ بَيَانِ إِثْمِ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ : (٣/ ١٣٠٣) ، برقم (١٦٧٧) ، واللفظ له .

المطلب الثالث

الفيل والطير الابابيل

الفيل : مَعْرُوفٌ ، والجمعُ أَفيَالٌ وَفُيُولٌ وَفِيَلَةٌ ، والأُنْثَى فِيْلَةٌ ، ولا يقال : أفيله ، وصاحبه فيّال . (١)

وهو حيوان ضخم الجسم من العواشب الثديية، ذو خرطوم طويل، يتناول به الأشياء كاليد، وله نابان بارزان كبيران يتخذ منهما العاج ، وهو شديد القوة ، ويسخر في حمل الأثقال أو جرها ، وقد اعتاد الناس في اسيا من سنوات طويلة استخدام الفيلة في العمل والصيد، كما استخدمت في الحروب ، وخرطومه هو أنفه ، ويقوم مقام يده ، وهو سلاحه الذي يبطش به ، ويكنى أبو الحجاج ، وهو يحقد كالجمل، فربما قتل سائسه حقدا عليه ، وأنثاه تحمل سنتين وفي المثل : آكل من فيل ، وأشد من فيل ، ويحرم أكله على المشهور ، ويصح بيعه ؛ لأنه يحمل عليه ويقاتل به عليه . (٢)

والطير سبق التعريف به في مطلب طيور ابراهيم – عليه السلام – .

قال تعالى في سورة الفيل : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ (٣)

إنّ مما يحدث به التاريخ ، وتتوارد عليه الأخبار الصحيحة هذه الحادثة التي تسمى حادثة الفيل ، والتي أرخ بها العرب الجاهليون وجعلوها مبدأً لمرحلة من مراحل التاريخ عندهم ، والحادثة كما تروي كتب التاريخ والسير كانت عام ميلاد النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وأن مسرحها كان مكة ، وأن مقصدها كان هدم الكعبة بيت الله الحرام ، فروي أن أبرهة بن الصبَّاح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء ، وسماها القليس ، وأراد أن يصرف إليها حجّ العرب ، فخرج من بني كنانة رجل وتغوط فيها ليلا فأغضبه ذلك، وقيل: أججت رفقة من العرب نارا فحملتها الريح فأحرقتها ، فحلف ليهدمن الكعبة ، فخرج بمجموعة ، ومعه فيل اسمه محمود ، وكان قويا عظيما، وقيل : معه ثمانية أخرى، وقيل: اثنا عشر، وقيل:

---

(١) ينظر : الصحاح للجوهري : (١٧٩٤/٥) ، والمحكم والمحيط الاعظم لابن سيده : (٤٢٠/١٠) .

(٢) ينظر : موسوعة الطير والحيوان : (ص : ٣٤٦-٣٤٧) .

(٣) سورة الفيل ، الآية (١-٥) .

غير ذلك، فلما بلغ قريبا من مكة ، خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع ، فأبى وعبأ جيشه، وقدم الفيل ، فكانوا كلما وجهوه إلى جهة الكعبة برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى جهة اليمن أو إلى سائر الجهات هرول، ثم إن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير فخرج إليهم فيها فعظم في عين أبرهة وكان رجلا جسيما وسيما، فلما ذكر حاجته، قال: سقطت من عيني ، جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك ، وشرفكم في قديم الدهر ، فألهاك عنه ذود أخذ لك، فقال : أنا رب الإبل ، وللبيت رب سيمنعك عنه، ثم رجع وأتى البيت وأخذ بحلقته وهو يقول:

لَا هُمَّ إِنَّ الْمَرْءَ يَمْنَعُ ... رحْلَهُ فَامْنَعْ حَلَالَكْ

وَانصُر عَلَى آلِ الصّلِيبِ ... وَعَابِدِيهِ الْيَوْمَ آلَك

لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ ... وَمِحَالُهُمْ عَدْوًا مِحَالَكْ

إن كنت تاركهم وكعبتنا ... فأمر ما بدا لك

فالتفت وهو يدعو، فإذا هو بطير من نحو اليمن فقال: والله إنها لطير غريبة ما هي بنجدية ولا تهامية، وكان مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة ، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه فهلكوا وتفرقوا آيادي سبأ ، فنزلت هذه السورة عبرة للمعتبرين . [١]

وقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ تكون بمعنى التعجب ، وتكون بمعنى التفخيم والتهويل والتعظيم ،[٢] والخطاب لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – بإنكار عدمها ، والتعبير عن العلم بالرؤية لتواتر الاخبار ومعاينة الآثار الظاهرة ، وتعليق الرؤية بكيفية فعله عز وجل لا بنفسه بأن يقال : ألم

(١) ينظر : دلائل النبوة للأصبهاني : (١٤٩/١) ، والتفسير الكبير للرازي : (٢٨٨/٣٢-٢٨٩) ، والسيرة النبوية لابن كثير : (٣٠/١-٣٦) .
(٢) ينظر : الهداية الى بلوغ النهاية لمكي بن أبى طالب : (٨٤٣٥/١٢) .

تر ما فعل ربك ؛ لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة ، وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته وعزة بيته وشرف رسوله – صلى الله عليه وسلم – الذي ولد في ذلك العام . (١)

ويسأل الأمام الرازي – رحمه الله – ويجيب : (لم قال: فعل ولم يقل: جعل ولا خلق ولا عمل؟ الجواب: لأن خلق يستعمل لابتداء الفعل، وجعل للكيفيات قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ (٢) وعمل بعد الطلب وفعل عام فكان أولى لأنه تعالى خلق الطيور وجعل طبع الفيل على خلاف ما كانت عليه، لم قال: بأصحاب الفيل ولم يقل: أرباب الفيل أو ملاك الفيل؟ الجواب: لأن الصاحب يكون من الجنس، فقوله: بأصحاب الفيل يدل على أن أولئك الأقوام كانوا من جنس الفيل في البهيمية ، وعدم الفهم والعقل ، بل فيه دقيقة وهي: أنه إذا حصلت المصاحبة بين شخصين فيقال: للأدون إنه صاحب الأعلى، ولا يقال للأعلى إنه صاحب الأدون، ولذلك يقال: لمن صحب الرسول عليه السلام: إنهم الصحابة، فقوله: بأصحاب الفيل يدل على أن أولئك الأقوام كانوا أقل حال وأدون منزلة من الفيل، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ (٣) ومما يؤكد ذلك أنهم كلما وجهوا الفيل إلى جهة الكعبة كان يتحول عنه ويفر عنه، كأنه كان يقول: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق عزمي حميد فلا أتركه وهم ما كانوا يتركون تلك العزيمة الردية فدل ذلك على أن الفيل كان أحسن حالا منهم) . (٤)

والذي نفهمه من هذا الحدث إستجابة الفيل لأمر ربه بعدم السير نحو الكعبة لهدمها وبروكه في الأرض ، وقيل : إنه كان يُضرب بالحديد كي ينهض ويدخل مكة ، ولكنه يأبى إباءً شديداً ، وهي أحدى آيات قدرة الله وتدبيره ، وجاءت الاشارة لهذا الموقف ما ثبت عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في صلح الحديبية وهو على مشارف مكة فامتنعت ناقته القصواء من الدخول ، وقال الناس خلأت القصواء ،

---

(١) ينظر : المصدر السابق : (٨٤٣٥/١٢) .
(٢) سورة الانعام ، من الآية (١) .
(٣) سورة الاعراف ، من الآية (١٧٩) .
(٤) التفسير الكبير للرازي : (٢٨٩/٣٢-٢٩٠) .

فقال – صلى الله عليه وسلم – :((مَا خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ ..))[١]، وقال – صلى الله عليه وسلم – يوم فتح مكة : ((إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ...)) . [٢]

وهذا الفيل المشهور بعظمته وهيبته والذي اتخذ ليكون ارهاباً لأهل مكة ، وليكون قوة عظمى ، فهو علامة على أنه أقوى سلاح آنذاك ، فاذا بالقدرة الإلهية تسخره لنصرة الحق ، وفي ذلك إشارة للمسلمين بأن لا يستعظموا قوة اعدائهم مهما بلغت ، وأن يعظموا قوة الله التي يُسخر لها كل شيء ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾.[٣]

ثم فصل الحق سبحانه وتعالى فعله بأصحاب الفيل بقوله في صورة الاستفهام التقريري : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ والكيد : إرادة وقوع الاضرار بالغير خفية ، وسمى سبحانه ما فعله أبرهة وجيشه كيداً مع أنهم كانوا يصرحون بهدم الكعبة ، ذلك لأنهم كانوا يضمرون الحقد والحسد أكثر مما كانوا يظهرونه كما قال تعالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [٤]

والمقصود من التضليل هنا : التضييع والابطال . [٥]

والطير: اسم جمع طائر، وهو الحيوان الذي يرتفع في الجو بعمل جناحيه ، وتنكيره للنوعية ؛ لأنه نوع لم يكن معروفا عند العرب، وقد اختلف القصاصون في صفته اختلافا خياليا، والصحيح ما روي عن عائشة – رضي الله عنها– :أنها أشبه شيء بالخطاطيف، وقيل :أنها تشبه الوطواط،[٦] وأفاد الرازي – رحمه الله –

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الشروط – باب الشُّرُوطِ فِى الْجِهَادِ وَالْمُصَالَحَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَرْبِ : (٣/ ٢٥٣) ، برقم (٢٧٣١) .

(٢) أخرجه البخاري ،كتاب الديات – باب من قتل له قتيل فهو بخير النظرين : (٦/٩) ، برقم (٦٨٨٠) ، ومسلم ، كتاب الحج– بَابُ تَحْرِيمِ مَكَّةَ وَصَيْدِهَا وَخَلَاهَا وَشَجَرِهَا وَلُقَطَتِهَا، إِلَّا لِمُنْشِدٍ عَلَى الدَّوَامِ : (٢/ ٩٨٨) ، برقم (١٣٥٥) .

(٣) سورة المدثر ، من الآية (٣١) .

(٤) سورة آل عمران ، من الآية (١١٨) .

(٥) ينظر : التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي : (٥١١/١٥) .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير لابن عاشور: (٥٤٩/٣٠) .

بأن التنكير في (طيراً) إما للتحقير ، فانه مهما كان احقر كان صنع الله أعجب وأكبر ، أو للتفخيم ، فأي طير ترمي بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل. (١)

وفي قوله ﴿أَبَابِيلَ ﴾ خمسة أقوال:

أحدها : أنها المتفرِّقة من هاهنا وهاهنا، قاله ابن مسعود، والأخفش.

والثاني : أنها المتتابعة التي يتبع بعضها بعضاً، قاله ابن عباس، ومجاهد، ومقاتل.

والثالث : الكثيرة، قاله الحسن، وطاوس.

والرابع : أنها الجمع بعد الجمع، قاله عطاء .

والخامس: المختلفة الألوان، قاله زيد بن أسلم . (٢)

وعبّر بالمضارع في ﴿ تَرْمِيهِم ﴾ كحكاية الحال ، واستحضار تلك الصورة الغريبة البديعة ، (٣) من قدرة الله تعالى على الانتقام من اعدائه بأضعف جنوده وهي الطير التي ليست من عادتها أن تقتل ، ولم يعهد أن يجيء طير من جهة فيقصد قوماً دون قوم ، وهو معهم في جهة واحدة . (٤)

وفي قوله : ﴿سِجِّيلٍ ﴾ قيل : اسم علم للدّيوان الذي كتب فيه عذاب الكفار، واشتقاقه من الإسجال، وهو الإرسال، والمعنى : العذاب المكتوب بما كتب الله في ذلك الكتاب، وقيل : انه معرّب معناه : سَنك وَكِل ، يعني بعضه حجر وبعضه طين ، وقيل : من طين مطبوخ كما يطبخ الأجر، وقيل : الشّديد . (٥)

وفي قوله : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ شبه تقطع أوصالهم بورق الزرع الذي أكلته الدواب فراثته فيبس وتفرقت أجزاؤه ، وفي هذا التشبيه جمع بين التلف والخسة . (٦)

---

(١) ينظر : التفسير الكبير للرازي : (٢٩١/٣٢) .
(٢) زاد المسير لابن الجوزي : (٤/ ٤٩٢) .
(٣) ينظر : روح المعاني للألوسي : (٤/ ٤٩٢) .
(٤) ينظر : البحر المحيط لأبي حيان : (٥١١/٨) ، ومحاسن التأويل للقاسمي : (٤٧/١٠) .
(٥) ينظر : لباب التأويل للخازن : (٤٧٤/٤) .
(٦) ينظر : التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي : (٥١٣/٢) .

وهذه معجزة تدل على حرمة البيت الحرام ، وقد فسر بعضهم أن الطير الأبابيل هي البعوض أو الذباب وأول الحجارة بالجراثيم ، والحال أن السورة صريحة بإرسال الطير ، وهي مكية ، وكان كثير من رجالات قريش ممن شهدوا الحادث ورأوا الطيور ، ولو لم يروها لبادروا الى تكذيب القرآن ، ولا يمكن أن يقال أنهم رأوا المكروب أو الجراثيم ؛ لأنهم لا يستطيعون رؤيتها ، ولا يقال أنهم رأوا الذباب او البعوض ؛ لأنهم لا يرون الحجارة التي تحملها ، فكان لا بد أن يكونوا رأوا طيراً ورأوا الحجارة التي تحملها ، ورأوا الرمي ، ولا يهم بعد ذلك أن يكون هلاك الجيش بمجرد وقوع الحجر أو أن تكون هذه الحجارة قد أصابته بمرض من الامراض ، فالقرآن لم يصرح بذلك ، بل ذكر هلاكهم بهذا العقاب الشديد . (١)

وفي عقاب الله تعالى لأعدائه بالطير جاء على غير ما يعرف من الاسباب ، اذ لا يوجد أحد خوّف أحداً بالطير ، ولكن لما كان البيت الحرام قد جعله الله للناس أمناً ، وارادوا أن يهدموه خوفهم الله من حيث يأمنون . (٢)

وإن هذه الحادثة لو لم يكن حديثها من القرآن ؛ لدارت حولها الشكوك ، فكيف تستطيع هذه الطيور الأليفة أن تنتقم من جيش عرمرم يتقدمه الفيل ، وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع ، فهي إحدى آيات قدرة الله ، وأثر من سخطه على من اعتدى على حرمة ، والهام الطيور والوحوش أقرب من الهام الانسان ؛ لكون نفوسهم ساذجة ، وتأثير الاحجار بخاصية أودعها الله تعالى فيها ليس بمستنكر ، ومن اطلع على عالم القدرة ، وكشف له حجاب الحكمة عرف لمية أمثال هذه. (٣)

---

(١) ينظر : المفصل في الرد على الحضارة الغربية لعلي بن نايف الشحود : (١٧/٤) .
(٢) ينظر : آيات الحج في القران الكريم ، للشيخ صالح بن عوّاد بن صالح المغامسي : (١٢/٢) .
(٣) ينظر : محاسن التأويل للقاسمي : (٥٤٨/٩) .

المطلب الرابع

الجراد والقمل والضفادع

والجَرادُ : معروفٌ ، وهو اسم جنسٍ ، والواحدة جرادة ، يقع على الذكر والأنثى ، وسُمِّيَ بِذَلِكَ ؛ لأنه يَجْرُدُ الْأَرْضَ ، [١] والجرادة تكنى بأم عوف ، وهو أصناف مختلفة، فبعضه كبير الجثة، وبعضه صغيرها، وبعضه أحمر ، وبعضه أصفر ، وبعضه أبيض ، وللجرادة ست أرجل: يدان في صدرها، وقائمتان في وسطها، ورجلان في مؤخرها، وطرفا رجليها منشاران ، وهو من الحيوان الذي ينقاد لرئيسه ، فيجتمع كالعسكر إذا ضعن أوله تتابع جميعه ظاعنا ، وإذا نزل أوله نزل جميعه، ولعابه سم ناقع للنبات، لا يقع على شيء إلا أهلكه ، وقد قَالَ عبد الله بن أَبِي أَوْفَى – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – ، قَالَ : ((غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – سَبْعَ غَزَوَاتٍ ، أَوْ سِتًّا كُنَّا نَأْكُلُ مَعَهُ الْجَرَادَ)) . [٢]

والقَمَلُ : معروف ، الواحدة قملَةٌ ، وقد قَمِلَ رأسُهُ بالكسر قملاً ، والقمل: دُوَيبَّةٌ من جنس القردان، إلا أنها أصغر منها تركبُ البعير عند الهُزال، وقملةُ الزرع دُوَيبَّةٌ تطير كالجراد في خِلْقَةِ الحَلَمِ ،[٣] وهي حشرة تتولد من العرق والوسخ إذا أصاب ثوبا أو بدنا أو ريشا أو شعرا، حتى يصير المكان عفنا ، وكنية القملة أم عقبة، والذكر أبو عقبة ، ومن طبع القمل أن يتلون بلون الشعر الذي يكون فيه ، ومتى تغير لون الشعر تغير الى لونه ، وهو من الحيوان الذي إناثه أكبر من ذكوره ، وفي المثل قالت العرب : عُلٌّ قَمِلٌ ، يضرب للمرأة السيئة الخلق ويحرم أكله بالإجماع ، وفي الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أنه قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً؟ قَالَ : ((الأَنْبِيَاءُ)) . قَالَ : ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ :((ثُمَّ الْعُلَمَاءُ)). قَالَ : ثُمَّ مَنْ؟

---

(١) ينظر : الصحاح للجوهري : (٤٥٦/٢) ، والمصباح المنير للفيومي : (٩٥/١) .

(٢) ينظر:حياة الحيوان الكبرى للدميري:(٢٦٨/١-٢٦٩)،والحديث أخرجه البخاري،كتاب الذبائح- باب أَكْلِ الْجَرَادِ: (٧/ ١١٧)، برقم (٥٤٩٥) .

(٣) ينظر : الصحاح للجوهري : (١٨٠٤/٥-١٨٠٥) .

قَالَ ((ثُمَّ الصَّالِحُونَ كَانَ أَحَدُهُمْ يُبْتَلَى بِالْفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ إِلاَّ الْعَبَاءَةَ يَلْبَسُهَا وَيُبْتَلَى بِالْقَمْلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ وَلأَحَدُهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِالْبَلاَءِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِالْعَطَاءِ)) . (١)

الضفادع : جمع ضِفْدِعُ ، مثال الخِنْصِرِ، والأنثى ضِفْدِعَةٌ ، وناس يقولون ضفدع بفتح الدال ، وهو حيوان برمائي ، ذو نقيق ، (٢) ويقال للضفدع : أبو هبيرة وأبو معبد وأم هبيرة ، وهي أنواع كثيرة ، وتكون من سفاد وغير سفاد، وتتولد من المياه الراكدة الضعيفة الجري، ومن العفونات وعقب الأمطار الغزيرة ، وهي من الحيوانات التي لا عظام لها ، قال سفيان: يقال إنه ليس شيء أكثر ذكرا لله منه ، وفي الأمثال : أنق من ضفدع ، وفي سنن ابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – ، قَالَ: ((نَهَى رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَنْ قَتْلِ الصُّرَدِ وَالضِّفْدَعِ وَالنَّمْلَةِ وَالْهُدْهُدِ)) ، ويحرم أكلها للنهي عن قتلها . (٣)

قال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (٤)

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: لما أتى موسى فرعون بالرسالة، أبى أن يؤمن وأن يرسل معه بني إسرائيل، فأرسل الله عليهم الطوفان فكان مطراً شديداً دائماً حتى كادوا يهلكون، وامتنع منهم كل شيء، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك بما عهد عندك، لئن كشفت عنّا هذا لنؤمننّ لك ولنرسلن معك بني إسرائيل! فدعا الله فكشف عنهم المطر، فأنبت الله لهم حرثهم، وأحيا بذلك المطر كل شيء من بلادهم، فقالوا: والله ما نحبَّ أنا لم نكن أمطرنا هذا المطر، ولقد كان خيرًا لنا، فلن نرسل معك بني إسرائيل، ولن نؤمن لك يا موسى! فبعث الله عليهم الجراد، فأكل عامة حروثهم، وأسرع الجراد في فسادِها، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك

---

(١) ينظر : حياة الحيوان الكبرى للدميري : (٢/٣٥٣-٣٥٨) ، والحديث أخرجه البيهقي ، كتاب الجنائز – بَابُ مَا يَنْبَغِي لِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَسْتَشْعِرَهُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى جَمِيعِ مَا يُصِيبُهُ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْأَوْجَاعِ وَالْأَحْزَانِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْكَفَّارَاتِ وَالدَّرَجَاتِ: (٣/ ٥٢١) ، برقم (٦٥٣٣) .
(٢) ينظر : الصحاح للجوهري : (٣/١٢٥٠) ، والمعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة : (١/٥٤١) .
(٣) ينظر : حياة الحيوان الكبرى للدميري : (٢/١١٧-١١٩) ، والحديث أخرجه ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، كتاب أبواب الصيد– بَابُ مَا يُنْهَى عَنْ قَتْلِهِ : (٤/ ٣٧٦) ، برقم (٣٢٢٣) ، قال شعيب الأرنؤوط : إسناده ضعيف جدًا .
(٤) سورة الاعراف ، الآية (١٣٣) .

يكشف عنا الجراد، فإنا مؤمنون لك، ومرسلون معك بني إسرائيل! فكشف الله عنهم الجراد، وكان الجراد قد أبقى لهم من حروثهم بقيَّة، فقالوا: قد بَقي لنا من حروثنا ما كان يكفِينَا، فما نحن بتاركي ديننا، ولن نؤمن لك، ولن نرسل معك بني إسرائيل! فأرسل الله عليهم القمّل ، والقمّل : الدُّبَى، وهو الجراد الذي ليست له أجنحة ، فتتبع ما بقي من حروثهم وشجرهم وكل نبات كان لهم، فكان القمّل أشدّ عليهم من الجراد، فلم يستطيعوا للقمل حيلةً، وجزعوا من ذلك، وأتوا موسى، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك يكشف عنا القمل، فإنه لم يبق لنا شيئًا ، ولئن كشفت عنا القمل لنؤمنن لك، ولنرسلن معك بني إسرائيل! فكشف الله عنهم القمل، فنكثوا، وقالوا: لن نؤمن لك، ولن نرسل معك بني إسرائيل! فأرسل الله عليهم الضفادع، فامتلأت منها البيوتُ، فلم يبق لهم طعام ولا شراب إلا وفيه الضفادع، فلقُوا منها أذًى شديدًا لم يلقوا مثله فيما كان قبله، قالوا: يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا الضفادع، فقد لقينا منها بلاءً وأذًى، فإنا سنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل! فدعا ربه، فكشف عنهم ، فنكثوا عهدهم ، فأرسل الله عليهم الدّم، فجعلوا لا يأكلون إلا الدم، ولا يشربون إلا الدم، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك ، فدعا ربه، فكشف عنهم ، ثم نكثوا ، فكانت آيات مفصَّلات بعضها إثر بعض؛ ليكون لله عليهم الحجة، فأخذهم الله بذنوبهم، فأغرقهم في اليمّ . (١)

فمن لم يصبه الطوفان في ماله، أو نفسه، أصابه الجراد أو القمّل، أو الضفادع، أو الدم ، وهكذا كان العقاب جماعياً ، فلم يسلم أحد منهم من هذه الآفات ، والجراد، والقمّل، والضفادع موجودة في كل زمان ومكان ، فكانت في زمن موسى بلاءً حينما تجاوزت الحد وخرجت على غير المألوف، فتكون حينئذ نقمة من أقسى النقم، ولو كانت في أصلها مما يطلبه الإنسان ويحرص عليه . (٢)

---

(١) ينظر : جامع البيان للطبري : (١٣/٦١-٦٣) .
(٢) ينظر : التفسير القرآني للقرآن : (٥/٤٦٦-٤٦٧) .

وقولـه : ﴿ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ ﴾ فـإن معنـاه : علامـات ودلالات علـى صـحّة نبوّة موسـى ، وحقيقـة مـا دعـاهم إليه ، وقد فصل الله بينها، فجعل بعضها يتلو بعضًا، وبعضها في إثر بعض ، قال المفسرون : كانت الآية تمكث فيهم من السبت إلى السبت، وترفع عنهم شهرًا ثم تأتي الآية الأخرى . (١)

وقـال صـاحب الكشـاف – رحمـه الله – : (ومعنـى مفصـلات : مبينـات ظـاهرات لا يشـكل علـى عاقـل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره ، وأنها عبرة لهم ونقمة على كفرهم . أو فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم ،وينظر أيستقيمون على ما وعدوا من أنفسهم ، أم ينكثون إلزاماً للحجة عليهم).(٢)

ومن هذه الدلالات والاشارات إرسال الله سبحانه وتعالى هذه الحيوانات الصغيرة الضعيفة وهي أنقص معرفة وعلماً ، وأضعف قوة وبطشاً ، وأوهن ركناً وعظماً ؛ لتعذيب الجبابرة العتاة تعريفاً بعجزهم وتذكيراً بصغر اقدارهم ، ويدلّهم على ذلك بأذلّ خلقه، ويعرفهم أن له في كل شيء جنداً، وأن القويّ من قوّاه وأعانه، والضعيف من ضعّفه، والمنصور من نصره، والمخذول من خلّاه وخذله . (٣)

فالمتأمـل فـي هـذه الآيـات التـي لا يملـك أحـد ردهـا ولا يسـتطيع أحـد أن يعترضـها ، ولا أن يسـيطر عليها مهما أُوتي من قوة يرى استجابة جنود الله تعالى براً وبحراً وجواً لأمره تعالى وتنفيذ حكمه ؛ ليعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، وفي ذلك تذكير بعظمة الله سبحانه وتعالى وبضعف الجبابرة وما أوتوا من عظمة وقوة ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٤)

---

(١) ينظر : جامع البيان للطبري : (٦٨/١٣-٦٩) .
(٢) ينظر : الكشاف للزمخشري : (١٤٨/٢) .
(٣) ينظر : الحيوان للجاحظ : (٢٨٨/٥-٢٨٩) .
(٤) سورة الفتح ، من الآية (٤) .

الخاتمـــة

الحمـد لله الـذي بنعمتـه تـتم الصـالحات ، والصـلاة والسـلام علـى سـيد السـادات وقائـد القـادات ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اقتدى به وسار على نهجه الى يوم الميقات .

أمـــا بعـد :

أحمد الله تعالى الذي وفقني على اتمام هذا البحث المتواضع والذي تناولت فيه دور الحيوان في نصرة الحق ، ومن خلال دراستي توصلت الى النتائج الآتية :

١- بينت الدراسة العناية الكبيرة التي أولاها القرآن الكريم بالحيوان لما له من مكانة في حياة الانسان ، ولما له من أثر في تبصير الناس بعظمة الله سبحانه وتعالى وقدرته .

٢- هذا البحث رسالة للدعاة الى الله تعالى خاصة ، وللمسلمين عامة ؛ لأن يأخذوا دورهم بنصره الحق وأهله ، ففي مواقف الحيوان حجة ، وعبرة للمعتبرين .

٣- وجّهت الدراسة دعوة للتأمل في آيات الله ، والتوسم في صفحات هذا الكون وآياته ، ففي كل آية فكرة رائعة ، ودرس عظيم فيه إبداع واعتبار .

٤- المتأمل في الأدلة التي ساقها القرآن الكريم لاثبات وقوع البعث واحياء الناس للحساب والجزاء ، يجد أن للحيوان دور بارز وواضح يجلي الاوهام ويبدد الشكوك من خلال شاهد البقرة والكلب والحمار .

٥- بينت الآيات من خلال البحث أن الله سبحانه وتعالى يؤيد أنبياءه بالمعجزات الدالة على صدق ما أرسلوا به ، فكانت معجزة ناقة صالح ، وثعبان موسى ، والنملة وهدهد سليمان ومعجزة الدّابة التي ستخرج في آخر الزمان خير شاهد وأعظم برهان لصدق الأنبياء ونصرة ما جاءوا به من الحق .

٦- أثبتت مواقف الحيوانات في هذا البحث أن هذه الكائنات التي تعيش بيننا هي أمم مثل الأمة الانسانية في وحدة التكوين والتنظيم والمشاعر والمدارك وغيرها .

٧- أثبتت الدراسة أن لكل نوع من الحيوانات لغة يتحدث بها ومن ذلك الهدهد والنملة مع سيدنا سليمان ، وعند قرب الساعة يخرج الله دابة من الارض تحدث الناس بلغاتهم .

٨- أوضحت الدراسة وبينت طاعة الحيوان لله ، وربما تفوق طاعة الانسان ، من خلال الاستجابة لله سبحانه وتعالى وتنفيذ أوامره .

٩- أن النمل أمة من الأمم المسبحة لله مع صغر خلقتها وهوان حالها ، وازدراء الناس لها ، وهي أقل فضلاً وتكريماً فهذا يدعو الانسان ليتفكر بعبوديتها ومعرفتها لربها .

١٠- أوضحت الدراسة أن الحيوان له ارتباط بالإنسان منذ خلق ، فكان تعلم الانسان لدفن أخيه الانسان الميت عن طريق محاكاته للغراب .

١١- أودع الله سبحانه وتعالى في كثير من الحيوانات الغيرة على دين الله والتأذي من انتهاك حرماته ، فالهدهد كان داعية الى الله ومنكراً على المشركين ومسفهاً لأحلامهم محقراً لمعتقداتهم وما يعبدون من دون الله .

١٢- إن الله سبحانه وتعالى خالق هذه الاحياء التي لا يحصيها الا هو بقدرته الا متناهيه ، وانه لم يخلق شيئاً عظيماً كان أو صغيراً الا وفيه آية ابداع وآية اعتبار ، فذكر الحيوان بعشرات الآيات ، وفي كل آية فكرة رائعة ، ودرس بليغ لمن القى السمع وهو شهيد .

وفي الختام نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المصـــادر والمراجـــع

- **القرآن الكريم .**

١. الإتقان في علوم القرآن ، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بلا طبعة ، ١٣٩هـ/ ١٩٧٤م.

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ) ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، بلا طبعة ، بلا تاريخ.

٣. أسباب نزول القرآن ، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ) ، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان ، دار الإصلاح – الدمام ، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م .

٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت : ١٣٩٣هـ) ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان ، بلا طبعة ، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م .

٥. آيات الحج في القران الكريم ، صالح بن عوّاد بن صالح المغامسي ، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية .

٦. الإيمان بالقدر ، عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، الطبعة: الأولى ، بلا تاريخ .

٧. البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) ، تحقيق: صدقي محمد جميل ، دار الفكر – بيروت ، بلا طبعة ، ١٤٢٠ هـ .

٨. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (ت: ١٢٢٤هـ) ، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان ، الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة ، بلا طبعة ، ١٤١٩ هـ .

٩. بيان المعاني ، عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني (ت: ١٣٩٨هـ) ، مطبعة الترقي – دمشق ، الطبعة : الأولى، ١٣٨٢هـ /١٩٦٥م .

١٠. تاج العروس من جواهر القاموس ، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ) ، تحقيق: مجموعة من المحققين ، دار الهداية ، بلا طبعة ، بلا تاريخ .

١١. تأويلات أهل السنة ، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ) ، تحقيق: د. مجدي باسلوم ، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م .

١٢. التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ) ، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس ، بلا طبعة ، ١٩٩٧م .

١٣. التسهيل لعلوم التنزيل ، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت: ٧٤١هـ) ، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت ، الطبعة: الأولى ، ١٤١٦ هـ .

١٤. التعريفات ، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ) ، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر ، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان ، الطبعة: الأولى ، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م .

١٥. تفسير ابن فورك من أول سورة المؤمنون – آخر سورة السجدة ، محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر (ت: ٤٠٦هـ) ، دراسة وتحقيق: علال عبد القادر بندويش (ماجستير) ، جامعة أم القرى– المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤٣هـ/ ٢٠٠٩م.

١٦. التَّفْسِيرُ البَسِيْط ، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ) ، عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الطبعة: الأولى ، ١٤٣٠هـ .

١٧. التفسير الحديث ، دروزة محمد عزت ، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ، بلا طبعة ، ١٣٨٣ هـ .

١٨. تفسير الشعراوي ، محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ) ، مطابع أخبار اليوم ، بلا طبعة ، بلا تاريخ .

١٩. تفسير القرآن الحكيم ،محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ) ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، بلا طبعة ، ١٩٩٠م .

٢٠. تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) ، تحقيق : سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .

٢١. تفسير القرآن، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت: ٤٨٩هـ) ، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم ، دار الوطن، الرياض – السعودية ، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م .

٢٢. التفسير القرآني للقرآن ، عبد الكريم يونس الخطيب (ت: بعد ١٣٩٠هـ) ، دار الفكر العربي – القاهرة ، بلا طبعة ، بلا تاريخ .

٢٣. التفسير الكبير ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ) ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٠ هـ .

٢٤. تفسير المراغي ، أحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ) ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة: الأولى ، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م .

٢٥. التفسير الوسيط ، د وهبة بن مصطفى الزحيلي ، دار الفكر – دمشق ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٢ هـ .

٢٦. التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، محمد سيد طنطاوي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة ، الطبعة: الأولى ، ١٩٩٧م .

٢٧. تهذيب اللغة ، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠هـ) ، تحقيق: محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م .

٢٨. جامع البيان في تأويل القرآن ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ) ، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م .

٢٩. الجامع الصحيح ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (ت: ٢٥٦هـ) ، دار الشعب – القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .

٣٠. الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي (ت: ٦٧١ هـ) ، تحقيق : هشام سمير البخاري ، دار عالم الكتب، الرياض- المملكة العربية السعودية ، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م .

٣١. جمهرة اللغة ، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١هـ) ، تحقيق: رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين – بيروت ، الطبعة: الأولى ، ١٩٨٧م .

٣٢. الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت: ٨٧٥هـ) ، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى ، ١٤١٨ هـ .

٣٣. حجة القراءات ، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة ، تحقيق : سعيد الأفغاني ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

٣٤. الحجة في القراءات السبع ، الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله (ت: ٣٧٠هـ) ، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم ، دار الشروق – بيروت ، الطبعة: الرابعة، ١٤٠١ هـ .

٣٥. الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة ، زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي (ت: ٩٢٦هـ) ، تحقيق: د. مازن المبارك ، دار الفكر المعاصر – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ .

٣٦. حياة الحيوان الكبرى ، محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين الشافعي (ت: ٨٠٨هـ) ، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة: الثانية ، ١٤٢٤ هـ .

٣٧. الحيوان ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ .

٣٨. دعوة الرسل عليهم السلام ، أحمد أحمد غلوش ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .

٣٩. روح البيـان ، إسـماعيل حقـي بـن مصـطفى الإسـتانبولي الحنفـي الخلـوتي ، المـولى أبـو الفـداء (ت: ١١٢٧هـ) ، دار الفكر – بيروت ، بلا طبعة ، بلا تاريخ .

٤٠. روح المعـاني فـي تفسـير القـرآن العظـيم والسـبع المثـاني ، شـهاب الـدين محمـود بـن عبـد الله الحسـيني الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ) ، تحقيق: علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى ، ١٤١٥هـ .

٤١. زاد المسـير فـي علـم التفسـير ، جمـال الـدين أبـو الفـرج عبـد الـرحمن بـن علـي بـن محمـد الجـوزي (ت: ٥٩٧هـ) ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى ، ١٤٢٢هـ .

٤٢. زهرة التفاسير ، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ) ، دار الفكر العربي ، بلا طبعة ، بلا تاريخ .

٤٣. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير ، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (ت: ٩٧٧هـ) ، مطبعة بولاق (الأميرية)– القاهرة ، بلا طبعة ، ١٢٨٥ هـ .

٤٤. السمو ، الدكتور عائض القرني ، موقع الروائع الدعوية ، بلا طبعة ، بلا تاريخ .

٤٥. سـنن ابـن ماجـه ، ابـن ماجـة – وماجـة اسـم أبيـه يزيـد – أبـو عبـد الله محمـد بـن يزيـد القزوينـي (ت: ٢٧٣هـ) ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد – محمَّد كامل قره بللي – عَبد اللّطيف حرز الله ، دار الرسالة العالمية ، الطبعة: الأولى ، ١٤٣٠ هـ/ ٢٠٠٩ م .

٤٦. سـنن أبـي داود ، لأبـي داود سـليمان بـن الأشـعث بـن إسـحاق بـن بشـير بـن شـداد بـن عمـرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ) ، تحقيـق : شـعَيب الأرنـؤوط – محَمَّـد كامِـل قـره بللـي ، دار الرسـالة العالميـة ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٠ هـ /٢٠٠٩ م .

٤٧. سـنن الترمـذي ، محمـد بـن عيسـى بـن سَـوْرة بـن موسـى بـن الضحـاك، التـرمذي، أبـو عيسـى (ت: ٢٧٩هـ) ، تحقيق : بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي– بيروت ، ١٩٩٨م.

٤٨. السنن الكبرى ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت: ٣٠٣هـ) ، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي ، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .

٤٩. السيرة النبوية ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) ، تحقيق: مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان، بلا طبعة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٦م .

٥٠. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣هـ) ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين – بيروت ، الطبعة: الرابعة ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

٥١. صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ) ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، بلا طبعة ، بلا تاريخ .

٥٢. العين ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ) ، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال ، بلا طبعة ، بلا تاريخ .

٥٣. غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت: ٨٥٠هـ) ، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلميه – بيروت ، الطبعة: الأولى ، ١٤١٦ هـ .

٥٤. فتح القدير ، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ) ، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت ، الطبعة: الأولى ، ١٤١٤ هـ .

٥٥. في ظلال القرآن ، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥هـ) ، دار الشروق – بيروت– القاهرة ، الطبعة: السابعة عشر ، ١٤١٢هـ .

٥٦. في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (ت: ١٣٥٩هـ) ، تحقيق: علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .

٥٧. قصص الأنبياء ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) ، تحقيق: مصطفى عبد الواحد ، مطبعة دار التأليف – القاهرة ، الطبعة: الأولى، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

٥٨. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ) ، دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة ، ١٤٠٧ هـ .

٥٩. لباب التأويل في معاني التنزيل ، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (ت: ٧٤١هـ) ، تصحيح: محمد علي شاهين ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ .

٦٠. اللباب في علوم الكتاب ، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت: ٧٧٥هـ) ، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ /١٩٩٨م .

٦١. لسان العرب ، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري (ت: ٧١١هـ) ، دار صادر – بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٤هـ .

٦٢. محاسن التأويل ، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ) ، تحقيق: محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلميه – بيروت ، الطبعة: الأولى ، ١٤١٨ هـ .

٦٣. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ) ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ .

٦٤. المحكم والمحيط الأعظم ، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ) ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٦٥. مسند الإمام أحمد ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١هـ) ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون ، بإشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١ م .

٦٦. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (ت: نحو ٧٧٠هـ) ، المكتبة العلمية – بيروت ، بلا طبعة ، بلا تاريخ .

٦٧. معالم التنزيل في تفسير القرآن ، محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت : ٥١٠هـ) ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ .

٦٨. معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ) ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

٦٩. المنهاج النبوي في تربية الأطفال ، جمع وإعداد : علي بن نايف الشحود ، بهانج– دار المعمور ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩ م/١٤٣٠هـ .

٧٠. موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي ، عبد اللطيف عاشور، القاهرة ، بلا طبعة ، بلا تاريخ .

٧١. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ، بلا طبعة ، بلا تاريخ .

٧٢. النكت والعيون ، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت: ٤٥٠هـ) ، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ، بلا طبعة ، بلا تاريخ .